مقام التخلي

سهام بدوي

رواية

اقرأ
مكتبة الكندل العربية

سهام بدوي

مقام التخلِّي

رواية

مقام التخلّي

رواية

الطبعة الأولي :2015

رقم الأيداع : 11804/ 2014

الترقيم الدولي : 978-977-6306-49-3

الغلاف: حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع

13 شارع 254 – دجلة– المعادى – القاهرة.

تليفون : 20225196569+ - 20225170678+

بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2015 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the .author has been asserted. All rights reserved

فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

بدوي، سهام

مقام التخلي : رواية / سهام بدوي. – القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، 2014

276 ص ، 24 سم

تدمك : 3 – 49 – 6306 – 977 – 978

1- القصص العربية

أ. العنوان

رقم الإيداع : 11804

الطبعة الأولى 2014

إلى إنريكيه كلاوس

(عن النديم والندامة)

نديمي غيرُ منسوبٍ .. إلى شيء من الحَيفِ

سقاني مثلما يشربُ .. فعلَ الضيف بالضيفِ

فلما دارت الكأسُ .. دعا بالنطع والسيفِ

كذا مَن يشربُ الراحَ .. مع التنينِ في الصيفِ

الحلاج

(عن أسنان السأم)

بين أسنان السأم.

وبين أسنان السأم يجب ألا يتململ المرءُ. فكل حركةٍ إصابةٌ جديدة من أنيابه. السأمُ يعلمنا درسَ السكونِ.

صباحٌ يفرضُ نورَه وذبابَه وأتربتَه وحرارتَه فوق الأربعينية ويوزع مجانًا ضجرَه وسأمَه وسماجتَه.

في مكتب أمي بتُّ ليلتي. غرفةُ نومها ما زال بها ملابسها ورائحة نومها منذ ليلتين. ليست معتادة على أن تغير ملابسها وتترك أية ملابس فوق المكتب. أمي كعقارب الساعة، إن دقَّت فلإعلان وقت جديد، وإن لا، فهذا معناه أنها توقفت عن العمل. رسالة أخيرة تتركها لي بملابسها هنا وهنا وهنا.

ثبتُّ عيني على ما يأخذ ملامح الهدايا، شيء ملفوف بورق سوليفان ولا تعرف ما بداخله، مكتوب عليه في بطاقة بيضاء "ستبقى حتى تموت من انسحاب لانسحاب. انسحاباتك لن تنتهي".

أهذا إهداء يا سعاد!

أفكر،أنا دومًا أفكر في مكان آخر. فبينما أنا هنا أفكر في هناك. وبينما أمتص نيكوتين هذه السيجارة أفكر في الأخرى التي تنتظر دورها في العلبة.

وعندما أرى جسدي في كرسيها (هنا) أفكر في جسدها المهروس في حديد سيارتها "الفولكس فاجن"، (هناك)، أما جسده هو فلا يهمني.

أغلق عيني على صورةِ وجهها هي، قبل وبعد.. الآن أستطيع جمع وجهيها بغمضة عين واحدة. أرى وجهيها عن يقين. عن يقين لها وجهين.. نعم نعم.. على الأقل!

أفتح عينيّ، أحدق في رائحة القمامة العفنة ومخلفات الحشيش والبيسا والكوكايين. الديدان التي تأكل بجواري في سكينة.

أنقلب علي بطني. أمد يدي لعلبة السجائر الفارغة علّها تخدعني، لكنها لا تفعلُ.

الفراغُ لا يخدعُ أحدًا.

أُخرجُ أطرافَ أصابعي، وأمسك ببقية سيجارة انطفأت في ملابسي ولحمي صدفة بسبب نوم كيميائي، ونأكل بعضنا بعضًا. ونتلذذ برائحة اللحم الشايط.

أهشُّ ذبابَ الرغبة في القيء ومعه ذباب هزال لنوبات هلع صارت تحدث الآن ليل نهار وأناقش صداعي. وأعيد الجملة التي كتبتْها سعاد، أضعها على لساني وأمتصها.

جملة مكتوبة فوق علبة الفضة بقلم كحل غالبًا، لكن أسودها قوي:

أجترها كفيلسوف فسدت بضاعته وبارت.... أكرر وأكرر وأكرر.....

ثم يحلو لي أن أبكي فأبكي!

ثم أنصصها أنا: "كل شيء يحدث بشكل سيئ". وأضيف اسمها: سعاد.

أغفو فوق يومي كاتمًا أنفاسه بكاتم صوت رديء: إمممم ممم إمممم ممم مممممم إممم مممممم إمممممممممم إمممممممممم. وليس هذا بالجديد، كما تعلمون.

أرفع رأسي من فوق مرتبة إسفنجية على الأرض.. أرض مكتبها. فأرى.

أرى مفاتيح حبيسة سلاسل يجر بعضها بعضًا. سلسلة في عنقي، وأخرى لباب الشقة، وثالثة لكلبتي، ورابعة لظهري، وخامسة صدئة أردت وضعها حول رقبتها وسحبها بها، لكن الظروف لم تواتني.

لمَ تتركينني أفعل هذا بك يا سوسو! كنتِ تحبينني أناديكِ هكذا..

والسابعة لباب القبر. باب القبر: هل يهرب الموتى؟ هل يُسرق الموتى؟ أم أننا نخاف من تسلل الذكريات والحنين من باب القبر ومهاجمتنا خلسة.. نريد أن نحمي أحلامنا ولياليا من زيارة غير مرغوب فيها.....

سلاسل للعائلة وللآلام ولحماقات الماضي والحاضر والمستقبل.

سلاسل من خطوط الكوكايين، سلاسل من الأكاذيب والأوهام والضلالات والهلاوس ونوبات الهلع.

سلاسل تنتهي بمفاتيح صدئة لا تفتح أي قفل ولا تناسب أي باب، سلاسل تنتهي بأقفال صدئة لا تستجيب لأي مفتاح!.

أضغط فوق (stop) فيُغلق المغني فمه على جملته ويأكلها

*** * ***

(عن الجمال)

جمالُها الهشُّ انتقل إليَّ كالكوليرا. عيونٌ صغيرةٌ ترى أشياءَ وتظنُّها حقيقةً. فتتورط فيها. شعر لا هو أسود ولا هو بني، يتلوّن بحسب الفصل وأجزاء اليوم أحيانًا. ويتساقط كثيرًا.

وأسنان ضعيفة آيلة للسقوط في أية لحظة. قامة قصيرة لا تساعد على رؤية البعيد أو العالي. فحتى أرفف مطبخها لا تعلم عنها الكثير.

لذا تجدنا أنا وهي غاضبين دومًا.

النهار حَمَلٌ ودودٌ، والليل ذئب ساحر، والدائرة تدور بهما.

أفكارنا مملة مكرورة أنا وأنتَ. كلُّ الأفكار الكئيبة مملة. تقول سعاد - دون صوت - بنظرة جانبية، من الصالة، وهي تمر عابرة بسرعة ضوء خَجِلَ من شُحِّه. نعم، نعم، ضحكتُ وأكدتُ لها بهزة من رأسي. وأفتح ضلفة النافذة مكملًا دون صوت، لكنك تعلمين أنني على حق. ونضحك دون صوت.

منذ متى نفعل هذا؟ نتكلم دون صوت، ونضحك دون صوت.. منذ متى؟

وهبتْني أمي أيضًا القلب نفسه: هش يتورم بسرعة وينزف أسرع ولا يتوقف عن النزف.

إسفنجة.. تحمل تاريخ الإسفنج الجيني: تتشبع بسرعة، وتفقد بسرعة. فثمة تواريخ تنمو خارج الذاكرة، كالأجنِّة التي لفظها الرحم. صحيح أنني أدرس الهندسة، لكنني أفهم أحيانًا في الأرحام.

تضايقني هذه الصفحة بفوضاها المرابطة ضدي والتي سقطتُ في جُبّها الأسود وحدي.

(سأحدثكم عن الأوراق والصفحات والاقتباسات والعنعنة وعن أرقام لا أعرفها لشخوص لا أتذكرهم، وعن سينمات كانت تحبها جدًا، وعن خبز ساخن، وعن مكتب كان لها وصار فرِحًا بتحرره منها، وعن أشياء أخرى، لكن اصبروا.. ركزوا فقط في هذا الدم على الحوائط. ابقوا معنا .....)

"ثمة دم على الحائط

حواف رجل كان..

عكاكيز غافية لن تعرج أبدًا..

أسِرَّة غير منتظمة فوق رجال مقطعين

والصمت الجالس فوق المستشفى المنهار.. بعد القذيفة".

سلسلة جديدة أضمها لسلاسل أخرى أحدثكم عنها فيما بعد.

سلاسل التنصيص هذه في رقبتي، إرث غريب عليّ البحث عن مالكه وتسليمه له. على الحقوق أن تعود لأصحابها.

لكنها هنا تضيف: ترجمة/ سعاد فهمي. فأضحكُ أنا.

نعم، إنها دومًا ترجمة، ترجمة ركيكة للدم يا سوسو.

ذاهبًا لأقضي حاجتي، وتلك العكاكيز التي تبحث عن السيقان تتبعني، فأتوكأ على صمتي ووحدتي وأضحك منها، تلك المتوسلة أن تسندني: عكاكيز أمي.

*** * ***

(عن الهتك)

وجبة ليست للأكل. وجبة ليست للأكل مرة واحدة.

لن أنتهي منها أبدًا. فعليّ أن آكلها وآكل امتداداتها اللولبية: وجبة كدودة حديدية بحركات روبوتية أفقية طولية لتقدمها أزيز ترابط مثير للغثيان.

ويد تدوس رقبتي وتهرس فمي بالطبق: كلْ.

دودة حديدية تُكسِّر أسناني الأمامية كلها، وتضحك لتناص ذلك مع عنف جيري ضد توم. لكن دمي أنا لا يُضحك وهو يسيل، ونزيفي الذي لا يتوقف سيزعجك.

وجبة هي علاقتنا يا أحمد!

أمي التي اكتشفُها الآن معكم،مرضتْ، وكتبتْ على دفتر أخضر كبير:

"سريٌّ وليس للهتك". فأتبسم شماتةً.

أسحب قرصًا أحمرَ وآخر أزرق وأتبعته بثالث لا لون له. أَلفُّ سيجارة حشيش محترمة، جوان يعمّر الدماغ، أتبعه بجوانين آخرين. وتهلّ هي. تهلّ بأسنانها المتفرقة الصغيرة الآيلة للسقوط في أية لحظة. الحشيش صديقي.

ألمحها تبتسم بسمَتها الحبيبة وتمر مسرعة وهي ترمقني، ولا أعلم كيف تبتسم وتغضب بنظرة واحدة!

أغفو بين أوراقها. "أَسَقَّطْ" أغفو وأصحو، غفوات كالموت وصحوات لا طعم لها. هكذا الأيام هذه الأيام وأنا حبيس أوراقها ومكتبها وبيتها.

قلت هذا من قبل! نعم، نعم، هذه عبارة لي! أنا أنسى ولا أتذكر إلا عندما أنسى؛ لذلك اتركوني أتذكّر وأنسى كما يحلو لي.. سأبيع هذا البيت، مؤكد.. لا تقلقي يا سعاد، مخاوفك ستتحقق. أنا محقق المخاوف.

وتلك الحديقة الصغيرة سأنزع جذور أشجارها بيدي هاتين، ظفرًا ظفرًا؛ لأرى اللحم ينزُّ، والدم يسعى حول الصفا والمروة: هذه مراسيم حجي بكِ.

وهذه الأوراق أعدكِ بنشرها، لكنني قد أتدخل؛ لأحذف أو أضيف.

لن أكتب اسمك: سعاد فهمي. فاطمئني.

لكنني سأغير الاسم الذي اخترتِه لكِ: امتداد. أريد اسمكِ أنتِ.

عليك أن تواجهي حقيقتكِ، مرةً واحدةً أيضًا.

"ما قيمة الموت إن لم يشجعنا على الرؤية؟".

وكما ترين، الهتك أمر لا بدَّ منه.

سأنفِّذ جملتك حرفيًا، فعلا ما قيمة الموت إن لم نرَ؟

إذن فلستِ "امتدادًا". ولا امتدادَ لكِ!

وأعلمُ أنكِ أردتني أنا بهذا الاسم.

*** * ***

(عن الداخل)

تجربة الجلوس في قطار عكس اتجاهه تُشعرك بتآمره ضد مخِّك، ضد مستقبلٍ تُعده وتخطط له. كأنما قرَّر أخذَك في رحلة إجبارية للماضي. وجهك باتجاه، وحركة جسدك بالاتجاه المعاكس.

تصبحُ المشاهدُ مخطوفةً من سياقها، منسحبةً كأنما تسرقُها يدُ عملاقٍ.

سأتركُ له عنانَ الكلام ليتكلم.

حياتك الجنسية معهن، أمر يخصك وحدك.. طبعًا!

أنا واحدة من الجمهور المتفرج مجانًا. أرى يديك على أجسادهن. وأسمعك تحلم بهن، وتكلمهن في السرير بجواري وأنت في عالم الكحول الحَنون. أليس سريري يخصني؟

لمَ تنظر إليَّ هكذا كأنما تحادث مجنونة؟ نعم،الكثير من الأوراق سيتعرى الآن..

أتراه مضحكًا إلى هذه الدرجة؟ كم تخفي خلف هذا الضحك؟

الضحك، أنت تعرف كيف تتقنع جيدًا خلفه. درعك ال....

وهذه الرحلة! أهم رحلة في حياتك! نسافر للمرة الأخيرة؛ لنصلحَ ما فسد!

فانظرْ، حتى القطار الذي نركبه ضدَّنا. أرقام المقاعد مقلوبة... كأنك اخترتها لنا، اخترت لنا أرقامًا مقلوبة، ومقاعدَ وُضعت بعكس الاتجاه.

يا هانم، مشكلتنا مش يتيمة، ليها أب وأم، إحنا سوا.

وكشخص مذعور من تاريخه، لن تركِّزَ في عيني. وسوف تتظاهر بالقراءة، وأنا سأتظاهر بالنوم. وسيراقب كلانا الآخر في انتظارِ الانقضاضِ. وتبقى "يا هانم" مضحكة جدًا.

وبينما أنا مغمضة العينين، فكرت كثيرًا: لمَ لمْ أسألك أبدًا، لمَ أنت مذعور هكذا؟

لمَ لمْ أسألك عن أسباب ذعرك؟ لمَ كنتُ دومًا أجيب عنك؟

ربما هو معنى ما من معاني الحب!

ولن أُطيل التوقف هنا. ما كان علىَّ أن أُغمض عيني في قطار، أجلس فيه بعكس اتجاهه. كانت هذه هي الغلطة. الجلوس العكسي يجلب أفكارًا خطيرة وخاطئة.

فمثلًا أنا الآن أشعر أنني عدة أزمنة مضت، لكنها تتجاور وتتفاعل، وكإجابة لسؤال لم يُسأل:

نعم،أنا رخوة وفارغة من أي معنى. الرخاوة والفراغ من صفاتي التي لا يعلمها أحد عني!

لكن دعني أنتهي الآن من هذا الحوار معك يا أحمد.

لمّا القطر يقرر يغيَّر مساره ما يخرجش كده. لازم يشوف تحويلة. ولما يخرج كده فجأة يبقى اللي هيحصل زي اللي حصل. هيدخل في ضحايا وبيوت ما عملتش حسابها على قرارات زي دي. والمؤكد أنه هيتقلب، بعد كل الأذى ده، هيتقلب برضه..

دا ماكنش تغيير مسار يا هانم. دا كان تغيير دور وموقع. إحنا حياتنا ميتة، وأنا مش هافضل مربوط بيها زي مسجون رجليه متسلسلة بكورتين حديد. خلينا نِخْلَص. العلاقة دي مش محتاجة أكتر من رصاصة الرحمة، طلقة!

ويسحبنا القطار، يسحبنا ويجبرنا على رؤية كلِّ شيء وكأنه لايأتي، بل يُشفَط بفوهة إعصارٍ: يُدوَّر ويُشفَط.

هذا يخيفني دومًا. الهدم. كيف أشرح لك هذا يا أحمد؟ إنه ليس الهدم، لكن العدم. ولن تفهم كيف أن العدم مخيف مفزع مرعب. العدم قاتل.

و "هِدِّي وابني من جديد" دي ماتحلش حاجة يا أحمد،بالعكس، بتعقَّد لي كل حاجة.

بلاش هدم نخليها تخلي. فكري بإيجابية مرة. خليكي واثقة في نفسك وسيبك من الأوهام والعوالم الافتراضية اللي انتي عايشة فيها دي. لو ده ماياسيبكيش، فهو يناسبني أنا. يا سعاد، السفر ده مفهش لا فايدة ولا ربح. إحنا مش في سفر، ده قطر بيسحبنا. بنتسحب! دي مش حياة.

صحيح إحنا بدأنا حياتنا بسفر جميل وحقيقي. لكن دلوقتي.. مفيش مستقبل لينا مع بعض. لو إنتي ماتعبتيش من الألم. أنا تعبت من الإيلام. عايز أحررني منك. عايز أنواع تانية من الذنوب. خدي الأمر ببساطة!

اسمحلي أضحك شوية! أنت بتحط فايدة وربح وسفر في جملة واحدة!

تعرفي يا سعاد أنا كنت غلطان.. السفر زوِّد الطين بلة. السفر عايز ناس حرة. مش إحنا. فاسمعيني كويس. خلينا نخلَّص الزفت اللي احنا فيه ده... لسه فيه أمل في إنقاذ الصداقة. الصداقة برضو نوع من الحب. مش عارف دي المرة الكام بقولك كده. مش فاهم خايفة من إيه؟ بقالنا أسبوع وأول مرة نتكلم النهاردة... إنتي مش شايفة إحنا وصلنا لإيه؟ دي مش نوَّه وتعدي.....

أفكّر جديًا في حذف هذا الكلام الفارغ يا سوسو، وأعيد كتابته من جديد.....!

أنا نادر أحمد عبد الظاهر، الظاهر إني سأعيد كتابة كل هذا. ومن الآن، سيكون لي رأي في كل صغيرة وكبيرة في حياتكما. انتهى عصر الفرجة.

(عن الداخل من الخارج)

يصْفُرُ، يصْفُرُ بقوة، يتمهل، يتمهل كثيرًا، يقف ويفتح أبوابه متلذذًا بانتظارات طالت من أجله. أفرك عيني، وأؤكد لنفسي بإيماءة طمْأَنةٍ أعرفها عن نفسي: أخيرًا!

صوت السرينة، واقتحام المحطة بتلك الثقة، الوقوف، فتح الأبواب تجاهي، حتى إن الباب يأتي موقعه عموديًا عليَّ، كلها إشارات توهمني بأنه قطاري المنتظر. أركب، أتعجل اختيار الكرسي، أرمي بحقائبي. وأجلس.

أفكر في أن القطار لا ينتظر أحدًا. وتمر بي السنوات، وأنا راضٍ ومتلذذٍ بأنني لحِقْته ولم أتركه يفوتني..

هههههه، قرحة الفِراش لم تكن في الحسبان.

قطارٌ واقف مفتوح الأبواب أو مسرِع صوب جهة ما، من يهتم؟

ثم، ولا أدري لمَ في هذا التوقيت بالذات، وبقليل من التركيز، أجدُ أن الذي يتحرك ويجري كان أنا. أأنا من كان يجري طوال الوقت، ويتوقف، ويفتح أبوابه، ويُدخل أجسادًا تودُّ الراحة والوصول.. أنا..؟ فلمَ كنت أخاف مخاطرة القفز؟

خايف من إيه؟ ما تنط يا حمار!

طيب لو كانت الحركة والسرعة منكَ أنتَ.....

ثم أضحك حتى أقع على قفاي، فسِّني الآن هيأتني للشك في الحركة أصلًا.

طيب لو كان هو ثابت والمتحرك هو أنا، كيف أبرر كل هذه المناظر والمشاهد والوجوه، بل والأجساد، هذا اللحم الذي أشمه، وأحس حرارته؟

كله أوهام. الجدران هي اليقين الوحيد. الجدران. الجدران سفرٌ لا نهائيٌّ.

اجلسْ واستقبلْ الجدار.

(يا سعاد توقفي عن إملائي، أريد صوتي أنا.. توقفي).

يأتيك هاتف: كل هذا على الجدران يا مغفل، كله على الجدران من حولك، كيف لم ترها؟ أنظرُ إلى الجدران بالساعات، لا أجدُ إلا ثقوبًا وشقوقًا. منها يمر كل شيء.

وصوت السارينة يأخذك من تركيزك. السارينة تحادثك؟ كل شيء يحادثك، فيختلط عليك كل

شيء، قد تشرب الناس، وتظن أنهم القهوة...

ها هي سعاد تعود من جديد. وتملي علي!

أريد أن أغادر هذه الراحة تاركًا الكرسي و كل الحقائب مفتوحةً للعابرين. وبمرور الوقت أنت تكتفي بهذا النوع من القطارات، نوع لا يمشي إلا على الجدران. أنت لا ترحل إلا على الجدران.

(كان ينبغي أن يدرس نادر الفن بدلًا من الهندسة كما أراد له أحمد).

الهندسة هي سبب انتكاسته. رسوم الجداريات كانت حلمه.

وها نحن نتفق، لأول مرة، كيف لم أقرأ هذا من قبل؟ بل أين قرأته؟ ومتى كتبته أنتِ؟

ذهني مشتت، الكيميا لاتجعلك على يقين من شيء.

وتقولين:

"السفر الوهمي يُربك صاحبه ويرتبك به". تعجبني هذه الجملة يا سعاد..

هذا ماقصدتُه أنا أيضًا.

أما القطارات فككل المخلوقات لها مقاصد أخرى تخصها وحدها.

لها رحلاتها وتوجهاتها. إنها كالصوت الجميل يسرقك من نفسك، ويعيدك إليك.. يأخذك ويردك، فلا تظنن أنه صوتك أنت.

قلتُ لكِ توقفي يا سعاد.

*** * ***

(عن الجدران والطيران فيها)

الرحلة أجمل محطة. اقفزْ من القطار الذي يدخل بك محطاتٍ وُضع عليها اسم ما كنت تريده. أو ما كنت تظنُك تريده.

القطار يعلمني القفز. وإن لم أقفز أنا، فسيدفعني هو. كلانا له مشاريعه الخاصة المتعارضة. ما يتوجه إليه ليس هو وجهتي، وإن كنا في نفس الاتجاه، للناظر من بُعد.

القطار يسير بي، وكم وددت لو أنه يطير. أريد قطارًا يطير!

ولأنه غير موجود حتى الآن فقد قررتُ أن أقفز أنا وأطير،ونتوازى أنا وهو.

الجرافيتي قطار يطير. إنه طريقتي الخاصة جدًا في التعبير لكِ عن حبي، طريقتي في اختيار هدية لعيد ميلادِك: جسدي. جسدي بساط الريح فأمتطيه، وسأتركُ لكِ شهوة التسكع بي!

أصعد على ظهر السلم، في ظلام شوارع القاهرة بعد أن قرروا قطع الكهرباء عن الميادين والشوارع لأجل غير مسمى ثمة من يرافقني ليسنده لي، غالبًا ما يكون ظلي، نعم نعم أنا أستند على ظلي كثيرًا، هو الوحيد المتاح أربعًا وعشرين ساعة، جاهز للدفاع عني ومراقبة الهجوم عليَّ أثناء تشويه سكينتها.

يحرسني ظلي من أن يعتقلوني لأنني مخرِّب ومخرَّب. لذا فعليّ أن أمتلك قطارًا يطير لنتبادل السرعات وقت الحاجة.

سآخذ سرعة سيره عندما أرسم، ويأخذ سرعة طيراني عندما أسقط قتيلًا! ممسكًا بألواني التي ستختلط بدمي وتلوّن الأسفلت.

وسنحتفل بشوارع جديدة في انتظارنا: أنا وسُلَّمي وقطاري الطائر: ظلّي. وأمهات الشهداء، أما الشهداء فأصحاب بيت... هاهاها

الاحتفال أسهل للأشباح؛ فأرجلها خفيفة لا تدب، ولا تثير أتربة وهي تمشي أو ترقص أو تتبادل التحيات والثرثرة فيما فعلتْ، قبل قتلها.

الأشباح غير مزعجة بالمرة،؛ فهي لاتأخذ مساحة في المكان، والأغرب أنها لاتأخذ مساحة في الزمان أيضًا! وكل أفعال الأشباح ناعمة محببة،خاصة عندما تتبادل المشاهد الأخيرة المثيرة، ككل مشاهد النهايات. آخر حركة قبل قفْل العيون القفلة الأخيرة. ذاك الرَّمْش الفاتن: رمش المحبين وقت الغزل: وقت إهراق الدم.

لا تعبثوا مع الأشباح، تلك الكائنات التي ترى في الظلام، وتمشي فيه، ولا تحتاج مساعدة للوصول إلى بعضها البعض. ولا تحتاج أضواء، لا تعبثوا معها.

"من يرى في الظلام،إما هارب أو عاطب. هما الاثنان مجتمعان، كالبحرين: عذب فرات، وملح أُجاج". هذا التنصيص لسعاد قبل أن أعيد أنا كتابة كل شيء هنا.

لكنها، هذه الجملة، تطن حولي ولا تلدغ، تمنعني التركيز... كصاحبتها!

من يرى في الظلام،إما هارب أو عاطب!

كنت أقول إن حركة الأشباح لاتُرى؛ فهي تُخفيها تحت الماء،كأرجل الإوز والبط الذي نرى تقدمه ولا نرى تجديفه العنيف العصبي تحت الماء.

صباح الخير. كم قتيلًا لدينا اليوم؟

الأخبار غير دقيقة؟ لا أعرف كم قتيلًا سأرسم اليوم! والأخبار ليست هي الحدود؛ لذا فإن صادفك قتيل في طريقك، اصطحبه معك، دعني أره، فهذا يفيد كثيرًا في تخليده على الجدران! التحديق في العيون المفتوحة بموتها مفيد للجرافيتي. إنها أمور تجعل الفنان أكثر واقعية. ساعدوا فناني الجدران احملوا المزيد من القتلى إليهم.. أرجوكم!

الثورة قتيل وجدار!

ما هذا العبث الذي أكتبه؟ لو كانت سعاد هنا ما استطعت أن أفعل هذا. هاهاها..

من حظي أنها تركت لي هذا العبث؛ لأعبثَ به!

"غير قابل للهتك ". سنرى يا سعاد. سنرى!

*** * ***

(عن البرشمة والتهييس)

هو: بتعمل إيه يا ابني؟

أنا: بارسم يا باشا.

هو: بترسم إيه؟ مش هاتسيبوا الحيطان نضيفة شوية. وبعدين معاك تصريح؟

أنا: دي ألوان يا باشا. شوية مية وتروح. مش محتاجة يعني.

هو: كله محتاج؟ أي حاجة لازمها تصريح من هنا ورايح. وبرضو مقلتليش بترسم إيه؟

أنا: شهيد.

هو: تاني؟ إنتو مابتتعبوش.. أسجنك يعني..

أنا:بس عايز أتأكد إنه اندفن...

هو: إنت بتهلوس ياض؟ ألبِّسك قضية تعاطي دلوقتي.

أنا: مابقتوش تستعملوا كاتم صوت يا باشا؟

هو: مش باقلك إنت مبرشم ومهيِّس...

هو: يلا يا حبيبي وفُضَّك بقى من الشهدا!

أنا: مش لما يبطلوا يتقتلوا يا باشا!

* * *

(عن الكفر)

تمامًا كما لم تكنْ تحب: فراغ وبرودة وصمت وظلام. أحملها إليه ولا أعلم: أي جثة أدفن أنا الآن؟

تشابهت عليَّ الجثث.. وهو أمر يساعد على الضحك.

خلفي مباشرة تصرخ امرأة، يخرج صوتها من مخي، من كل خلايا مخي، تورماته وفجواته اللولبية. أتراجع محتفظًا بيدي خاوية منها بعد أن سحبتني يد راحت تمسّد ظهري وتتوقف طويلًا فوق كتفي..

سلم أمرك لله يا ابني.

لأ، أنا قررت أسلمه لك!

أدفعها، فتتراجع للخلف وتنزوي بصوتها ويدها.

أسير في رعشتي، مستندًا إلى عكاكيزها، وأحدّث نفسي. أسمعهم وهم يتحدثون عنا أنا ورعشتي.. "بيكلم نفسه من الصدمة، ومن الحزن مسكين... دا بيرتعش طول الوقت".

.. وكلام ابن وسخة من ده. كلام مش كلام.. نوع فاضي من الكلام. "كلام ابن عم حديت"، زي ما كانت سعاد بتقول.

أرد بصوت جهوري: أنا ناقص صراصير يا بهايم.. صراصير.. دمي محتاج صراصير.

جثة سعاد تُسلمني إلى جثث أخرى. وجهها المشوَّه يجلب وجوهًا كثيرة.

وفي الصباح التالي كنت سعيدًا.. في منتهى السعادة، وقد شعرت أن غيابها يمنحني كل هذه الحرية. أخيرًا.

بل صار السؤال: من كانت هذه المرأة؟ هو شغلي الشاغل الآن!

سحبت كرسي مكتبها، ضبطته ليناسب جسدي، رفعته أكثر، وضغطته إلى الوراء ليترك مساحة لظهري أنا، وغصت في أوراقها هي.

غريب اقتحام مكتبها في غيابها.

مرت أيام وليالٍ ولم أخرج من جلستي هذه.

أيام تُذكرني بأيام تحضير معرض، شغل ليل نهار.

قبل أن أبدأ..شعرت براحة تأتيني مع هواء النافذة الذي فتحه هواءٌ لا يستأذن أحدًا.

الآن سأتبول دون خوف، وستتسخ ملابسي كما يحلو لها. سأطيل شعر ذقني ورأسي وإبطي والعانة بكل ثقة. وأطيل أظافري حوافري كما كان يحلو لها أن تسميها. سألقي بما أشاء أرضًا. مثلًا سأكسِّر زجاجاتِ عطرها التي كرهتهُا كثيرًا، تلك الزجاجات تعلم جيدًا مدى كراهيتي لها. وسأمشي فوق شظاياها ولن تجرحني؛ لأننا إخوة في الملل والسأم. انظروا، إنني أسير بكل وزني: خمسين كيلو فوق الشظايا ولا يؤلم إنغراسها فيَّ، ولا يؤلمها دَهْسي لها.

سأتوجه الآن للمرآة، سأحطم مرآتها، تلك المرآة التي رأتها، وتحدثتْ إليها أكثر مني!

هل تسمعون صوت الزجاج الهاوي أرضا!

له طعم الماء الجاري هدرًا.

سأنثر أرقام تليفوناتي المشبوهة فوق ظهر يدي، وفي بقع أخرى من أركان وحوائط وأوراق.. سأضعها كلطع الدود فوق باب الثلاجة. سأترك صفحتي على الفيس بوك وصندوق البريد الخاص بي مفتوحين في سكينة.. لن يهتك سري أحد. في كل مكان نثرت أرقام تجار المخدرات وأصحاب "الضرب".

الآن كل الأماكن لي. المومسات، والبنات "الضرب"، وجدران البيت كلها. كله سألوِّنُه.

يمكنني أيضًا أن أمر بظلي الآن، وأتوقف لأسأله:

أأنتَ أنتَ أم محضُ انعكاس؟

وله مطلق الحق في أن يضاحكني بصوت جهري ويقول إنه هو أنا ومحض انعكاس. للظلال دعابات وخفة ظل تروقني كثيرًا. هههههه..

اضحكوا.. فالظلال تؤلمني.. أقصد تُضحكني، لأنها تؤكِّد لي أنني مغفل يعيش مع مغفل في مغفل.

أنا أعيش مع ثلاثة مغفلين على الأقل.. هاهاها.

سأفعل هذا كثيرًا دونما شبهة اتهام بجنون أو مس أو شك في كوني مسطول ومبرشم.

وسأمشي ليلًا في البيت وحدي أكلم ظلي البائس النحيل من شدة تعبي وانهياراتي المتعاقبة. لقد دمرتني الثورة والله يا سعاد. لم أشكُ لك الثورة أبدًا من قبل.

فانظري كم هو جميل رحيلك يا سعاد.

انظري كم هو لذيذ الجلوس في مأتمك. ذلك الفرح الأسود.

سقطتْ فيه امتلاءات كثيرة فوق رأسي. كطائرة أفرغت كل ماتحوي، واختارتني أنا.

أصدقاؤها، مالي أنا بأصدقائك، عائلتك، مالي أنا بعائلتك، وحياتك الورقية و قطارك الذي ركبتُه من محطة لا تخصني وسار بي لمحطات أخر. تقودين وليس عليّ إلا أن أتفرج على تواريخ وأزمنة وأماكن، لا تخصني.

تتوقفين هنا، تشيرين هناك، تصمتين وتغيبين أحايين كثيرة، وماعليّ إلا التركيز طوال الوقت في حياتك. لغاتك وتواريخ أمكنتك، وأماكن تواريخك.

الله، ما أبدع الكفر بك يا سعاد!

مدة صلاحية كل هذا انتهت، مدة حياة المنتج كانت 30 سنة. كفاية.

تلاتين سنة؟ والله مش متأكد. احتمال يكون عمري.

أسمع صوت طلقة طائشة تدخل يافوخي:

انتظر.. هي لم تمت!

ماذا؟ لم تمتْ؟

لكن، طالما اتفق كل هؤلاء على كونها ماتت، إذن فقد ماتت بالفعل.

وتغزو أصوات أخرى هذا الصوت فأتشتت. أصوات أصوات أصوات،معركة شريفة، كلُّها وجهًا لوجه، لاأحد يستخدم فيها خناجر، لا شيء من الظهر.. على عينك يا تاجر..

أصواتٌ، أحيانًا هي أصوات أوتار جيتار مدكوكة مدهوسة ما زالت تصرخ صراخًا رفيعًا.

إإإءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءءء.

وأحايين أخرى سرينة نجدة أو إسعاف.أبواق كثيرة هنا.

بوق يخرج من فتحة فم واسعة وأسنان دقيقة، وفستان أسود صُمم لحفل زفاف أكثر منه لحفل عزاء:

شفتها، كلمتها؟

مفيش نصيب يا طنط. وكمان وشها اتعجن بوِش العربية (يا طنط).

أريد أن أطلب منها الوقوف قليلًا والدوران،لأتمكن من فهم إمكانيات هذا الفستان.. لكنها.. لا تدور.. طنط مريم لا تدور.

تجمع صوتها وتبتلع الجملة بَلْعة واحدة وبنظرة على حذائي و لا أفهم لمَ ينظر الناس إليه كثيرًا وليس لي أهو يحميهم مثلًا، أمهرب؟ أيجدون فيه غواية ما؟

هاهاها، غواية الأحذية!

لِمَ ينظرون إلى حذائي بدلًا مني؟

أكانت تقصدني أنا فعلًا؟ ثم انتبهت إلى أن حذائي يشبهني؟

أكان يشبهني لهذا الحد؟

تقول:

طول عمرها كانت حاسة بالذنب...ناحيتك.. وتدير وجهها، كنت أريد لو أدارتْ شيئًا آخر،بصراحة خسارة الفستان ده في الركنة ع الكرسي ساعتين كاملين!

طيب أقولها تعالي نتكلم جوه عن سعاد مثلًا.

ونعمل إيه في أونكل عصام اللي قاعد جنبها؟

جديد الدور ده عليكي يا طنط مريم، وأدور حولها وأغني:

"ذنب إيه اللي جاي تقول عليه"..... هههههه هههههه هههههه..

غريب جدًا! أونكل عصام صوابعه بقتْ مدورة وتخينة ملفوفة، وجسمه مَلَا من تحت، وكرشه كمان.

كانت بتقول إنه في الفترة الأخيرة بقى بيحب يقف كتير في المطبخ ويطبخ بنفسه، وطرد كل الشغالات.

وبالوقت صارت عندما تتحدث عنه تبدأ الجمل ب: امبارح طبخلنا عصام طبخة تجنن. وبالوقت انتفخ عصام من شمّ الزيوت.

" كلُّ تواصلٍ من شأنِه أن يُسقطَ المرءَ في الابتذالِ"..

أرقص الآن على موسيقى جاز أسمعها وحدي. لكن تنصيصات سعاد لا تكف عن المحاصرة. كحالة وجد سقط فيها درويش من دراويشها... كما كانت تصف نفسها عندما تنسى وتتوه ولاتدري لم هي هنا.. "هنا".. في حكاية ما مثلًا. قد صارت تنسى كثيرًا.. سعاد وحكاياتها وعوالمها، وأخيرًا:

بانتْ سعاد فقلبي اليوم..... وبانت يعني ظهرت! هههههههه..

أترك هذا الجمع، في سفينة نوح، وأفكر في الحية التي تحمل السم والترياق. أنظر لمريم من بعيد. وأضحك. كل ما في مريم الآن يُضحكني. من الكرسي للتلفت للضغط على ضروسها، للعن سعاد، لتجنبها النظر لأبي، لسحب السي دي وتغيير السورة عندما تنتهي كي ترتاح روح سعاد. كل شيء فيها يضحكني. وبالأخص عندما تهش روح سعاد، وتفتح حقيبة يدها لترش عطرًا يقلق تلك الذبابة.

وأسأل نفسي: متى ستضحك مريم مثلي؟

أسأل: أكانت الحية ضمن من ركب السفينة؟ فلا تقول الكتب المقدسة شيئًا.

وحتى لو نَفَثْ! لن أصدقها!

توقفي يا سعاد عن تلقيني.. قلتُ لكِ.

أذهب إلى غرفتها، أفتح ضلفة دولابها، أُخرج ماتقع عليه عيني في المقدمة. قطعة كبيرة من القماش، تبدو كتانًا رخيصًا خشنًا لا شيء يُحسّنه، أتحسسه كمسدس،أتلذذ بخشونته ورائحة خزْنِه النفّاذة.

أتوجه للباب وأغلقه عليّ. أسحب باليد الأخرى فستانًا كان لها وأشمه.ألقيهما أرضًا.

لمَ ترتعشُ يدي هكذا؟..

اهدئي يا يدي.. لا شيء يُفزع.. لقد رحلت سعاد.. فقط!

أتشمم الفستانَ، له رائحةٌ مميزةٌ. كانت تفضِّلُ من العطور ما يدوم لأيامٍ. أحيانًا لأسابيعَ. أحيانًا كانت تغرق فستانًا ما بالعطر وتحبسه في حقيبة، ثم تخرجه وتلبسه وقد تعتّق العطر وصار لا يحتمل ككل شيء مخزون.

لم تغيرْ هذين العطرين أبدًا، قالت في أوراقها إنها "لا تغير العطور ولا الرجال ولا نوع السجائر". لم أعرف أبدًا أنها كانت تدخن إلا من أوراقها. كانت تعرف كيف تحمي سرًا!

أُلقي الثوبَ أرضًا وأمسكُ بقطعة القماش التي كانت تدعوني بقوة لأفتحها، كما فتحتُ "فتاةً" بعد أن طلبت مني ذلك بإلحاح تحت التخدير.

كانت الجملة مكتوبة بقماش أحمر خُيّط فوق القماش الكتان الذي يعوم في صفرته الباهته: "انتهت مدة صلاحية اليوم".

سأُخرج هذه الرقعة، وأُلصقها على باب غرفة مكتبها، كدليل لأي عابر يمر، أو كرقم للعنبر أو الزنزانة، لأي زائر محب، وحتى لا أتوه "أنا"عن غرفة إقامتها..

لكن لا تاريخ مكتوبًا، فمدة الصلاحية تنتهي، و لا أعرف متى ولا ما هو المنتج؛ لأعرف معنى لصلاحيته،ومعنى لانتهائها.

هذه عبارة لا معنى لها يا سعاد. ولا وقت للعبارات التي لا معنى لها، كما تعرفين.

لذلك سأحذفها.

(عن البقاء في الصمت)

وتبقى صامتة.

أذكر أمي في الفترة الأخيرة بالكاد. كثيرة البكاء، منزوية، تتلقى مكالمات هاتفية في آخر الليل وفجرًا و"اسكيْبات" متأخرة أيضًا.. ثم تعود وتبقى صامتة طيلة السهرة. لماذا؟ ينبغي علي أن أركز وأدقق، الآن، وسأصل لحل ألغاز كثيرة. إن شاء الله خير...!

قلت لنفسي وأنا أقلِّب في دولابها الكبير نصف الفارغ، لمَ كانت تجمع العديد من هذه الأكياس الحبيسة. أكياسٌ حبيسةُ حقيبةٍ سوداءَ ترابها يؤكد مدى إهمالها.

لا قدرة لسعاد على رؤية التراب. كأنه يهدد وجودها. كانت مقتنعة لسبب ما أن الأتربة تسهِّل الانزلاق. لذا فقد كانت تحاربها بجدية وعنف. هذا من أعاجيب سعاد.

وصارت الأتربة يحلو لها تعكير مزاج سعاد، بمفاجأتها دومًا في المكان غير المتوقع. هنا داخل حقيبة داخل دولاب مكان مضحك من هذه الأماكن.

المضحك أكثر هو استسلام سعاد. أو لنقلْ نسيانها. أو تناسيها..

أو لأسباب أخرى لا أعلمها.

مغلفات بلاستيكية شفافة مكتوب عليها: "واقٍ ذكري" باللغة الفرنسية.

قاومتُ شيئًا غريبًا صار يدفعني لعد أي شيء في الفترة الأخيرة. وفي النهاية استسلمت لِلَذَّة عدّها.... على نغمات "فريق راب فلسطيني":

(ثورة ثوووووووووووووووووووووووورة).

خمسة وتلاتين ثورة.. وبعدين:

لَمْ تُظْبُط العمليه.... صُح مش غلط.... بالنضال معتصمون.... بالطرقات ممزعون.ازهقتْ)!

عددها بعد الإحصاء الخامس لفقدي القدرة على التركيز والإحصاء الصائب من كثرة ما أحصي أربعون عبوةً.

لمن هذه العلب؟ له؟ لها؟ ولم أرادتْ الاحتفاظ بها؟ وكيف وصلت يدها هي إن كانت له؟ ولم

أرادتْ التحفظ عليها كرهائن؟ ما الذي أرادت أن تفعله بها؟

ألصقتْ ورقة صفراء وكتبت تنصيصين آخرين:

" كائنات ستنقرض قريبًا: أقصد الرجال وليس الذكور". "ضد الإخصاء"..

وبجوار التنصيصين وضعتْ وجهًا مبتسمًا. هكذا: ﴿

أمي بقامتها القصيرة وفمها الدقيق وأنفها الدقيق وجبينها الدقيق، عينيها وأذنيها، كل شيء فيها كان يدعو للدقة. لقد كانت أمي درسًا في الدقة.. وفي فشل الدقة، على السواء..

وكتبت تحت عنوان: (دقة)..

"تتنقل كحمامة تطاردها فوهات البنادق،تنظر لعين الصياد كأنها بحاجة إلى ذلك العدو. كل غرف منزلها تفتح على بعضها البعض. لا حدود. الحدود ستُغرقها في فوضاها.

فوضى الحدود أمر لا يعرفه الكثيرون. للحدود رغبة في الانتقام من عدم احترامها.

الحدود لن تغفر اختراقها هكذا دون رهبة. ومن يجتازها ستجتازه هي أيضًا.

هذا الاجتياز، وهذا الاختراق، وتلك الرهبة: أمر يخص الدقة،إنه شأن من شؤونها. لذا أنت تراني أبكي؛ لأقطع على الحدود انتقامها!".

أنا وأمي نحب البكاء. أنا وأمي من الباكين في الأرض. وهذا المغني المعتصم بالنضال، أتراه يحب البكاء أيضًا؟

البنادق، البكاء، الخصاء، الحدود واللاحدود، الفوضى والاجتياز، الدقة والرغبة في الانتقام..... والنضال، وكمان مرة: النضال.

كلها مراكب شراعية تنام على جانب من جوانبها، وتطفو ميتةً في رأسي.

*** * ***

(عن الهنا والهناك)

هنا أم هناك؟ وما الفرق؟ ومن يسأل من؟

يا سعاد لا أفهمك!

على أية حال، أنا حذفت خمس صفحات مما كتبتِ، كانت ستضر بالمحتوى، وستربك القارئ الذي لم يعش معنا. ولا يعرفك جيدًا..

لذا، فحاولي غدًا. عندما نلتقي، سيكون لدينا فائض وقت؛ لتشرحي لي..

"أهذا سبب كافٍ لنموت؟إننا لم نعد نفهم لا هنا ولا هناك".

قد أترك هذا الكلام. سأترك لك هذه السطور.

"أيكون هذا سبب تعاطفي مع القَتلى بكل أنواعهم؛ إنهم لم يعودوا يفهمون: لا هنا ولا هناك".

هذه أيضًا تعجبني. لا أفهمها وهو ما أحبه فيها.

القتْلى! كم صورةً جمعْتِها لهم في أوضاع مختلفة يا سعاد؟

أزمنة وأمكنة دقيقة،أحيانًا اليوم والساعة ووصف لطريقة وشكل الجسد وهو ينازع! وسبب القتل. رصاص حي، خرطوش، سيوف، أو... أتظنين الدقة تفيدهم!

"متحف كامل". منهم من يبتسم، ومن فقد الملامح، ومن حُشيَ بالرصاص، ومن ابتلع لسانه، ومن ضحك من كل هذا، ومن عُلِّق وما زال معلقًا.

كلهم تجمعهم الصدفة!

" كلهم على جدران ألصقهم بها نادر!

يا لكَ من قاسٍ! المخدرات علمتك القسوة. هذا عالم لايُفهم! مثلك. واللهِ إن الجدران لتئن! ".

الجدران تئن؟ يا جمالك يا سوسو. يا قلبك يا روحي!

آه بالظبط كده. فيلم بورنو يعني! طب مش ده ممنوع بقوة الأخلاق برضو!

الجدران تئن... هاهاها.....

كم مرة حمَّلتِ الصور من المواقع... وكتبتِ عليها: تصوير: سعاد فهمي.

ضحَّكتيني والله يا سوسو.

وكم مرة فكرتُ في مواجهتك وأنت تشاركين أصدقاءك على الفيسبوك الصور، وتحصدين اللايكات. أتتذكرين يوم واجهتك بما فعلتِ؟ رحتِ تصفين لي وضعًا في اليوجا، اكتشفتِه مؤخرًا ساعدكِ كثيرًا على النوم.

هم أيضًا صاروا ينامون بسهولة دون يوجا..

وهذه حواراتنا الأخيرة:

لم تضعين هذا هنا؟ كل هذه الوجوه المقتولة المشوَّهة؟

نعم عليك أن تجرب السفر إلى سيوة؛ فهو مفيد جدًا للروح. الطبيعة تفيد الروح. البراح والسماء والنجوم والخلوة...

*** * ***

(عن الضمان والضمانات)

الضَّمَان؟

نعم الضَّمَان.

أتعرفون لهذه الكلمةِ معنىً؟

مؤكد.

هذا يعني أنه يمكن أن تعني لكم شيئًا. أيمكن أن تشرحوا؟

نعم، إنها كلمة تتردد كثيرًا هذه الأيام؛ مما يوحي بأنه لا بد أن يكون لها معنى ما.. ككل ما يتردد على الألسنة! ضَ مَ ا نَ ا ت... كلها مفتوحة. أليس لهذا معنى؟

طيب.

وألسنة من تلك التي ترددها؟

ليس الأمر مهمًا؛ لإثبات حياة كلمةٍ ما. مهمَّة هكذا.

صحيح.لكن من أنتم؟

لا ضمانات، ألم نتفق أعلاه!

وأنتَ؟

لا تكرروا نفسَ الخطأ! فهذا قد ينقلنا لكلمة أخرى..

التي هي....؟

الغباء.

وهل هذا يعني أننا لسنا هنا، أننا لا أحد مثلًا؟

مطلقًا. أنا أرفض التكرار، لا أرفض الإجابة!

أجبْ إذن!

هل لدي وقت لأضحك حتى أسقط على قفاي أمامكم، قبل أن أنسحب؟ أقصد قبل أن أجيب؟

ولكن ما الذي تحمله في يديك؟

إنه ضماني الشخصي؟ مدة صلاحيتي المنتهية. لذا فأنا ممنوع من القيادة مثلًا. والكلام أيضًا.

لكنك تناقض نفسَك الآن!

نعم هذا يحدث؛ لكي تتولد الأفكار، وتتكاثر المعاني. إنها الصدف السعيدة ليس إلا!

من يتحدث؟

لا أحد.

ولمن؟

للا أحد.

تكرار بعضه من بعض!

ربما.

أهذا يعني أن علاقتنا قائمة على الكذب؟

ليس بالضرورة.

لماذا؟

لأننا اثنان بصورة مفزعة. اثنان أصلًا وككل اثنين.....

وبوصفنا اثنين، فما هو مصيرنا إذن؟

لا مصير لنا. ولعلمكِ نحن أكثر من اثنين!

كم هذا جميل! فعلًا تحليلك رائع!

تحليلي؟

نعم،أقصد - هذه القدرة على الكذب والإقناع معًا... تحياتي.

أولم أقل لكِ إننا اثنان أو يزيد.

يعجبني تفهمك وإعجابك بي!

أهي ترجمة ركيكة لسخريتك مني؟

ويضحكان مطمئنين. وينامان النفَّس في النَّفس. لذا أكره الأنفاس، صرت أكرهها تلك الأنفاس، فلا أدخن الشيشة مثلًا، لأنك ترى أنفاسها المتطايرة أمامَك وأنت تثرثر ولا تنتبه. ترى أنفاسك أمامك ولا تنتبه! "الشيشةُ غفلةٌ طائرة" كما تقول سعاد.. كالغاز الطائر والرصاصات الطائشة،

وهبوطك فوق الرصيف وأنت ترسم، بقعة فوق بقعة: جثة فوق دمها.

أهذه هي الظلال، نعم، ثمة ظلال في الليل.

قتيل وجدران منتصبة، ويدان تشيران. وأبقى وحدي. وحدي.

ويضحكان، هما، مطمئنين. وأنام أنا مطمئنًا عليهما... سعاد وأحمد: أمي وأبي.

لكنك ستقول عكس ذلك بعد قليل؟

يصيح أحد القراء، الذي صاح من قبل طالبًا عدم التدخل في كلام سعاد.

القارئ المزعج نفسه.....!

نعم نعم... صحيح قد تتغيّر آرائي حيال موضوع واحد، أكثر من مرة في اليوم الواحد، لكنني أبقى دائمًا على حق. كما أن لي حق التدخل سيدي.

لكنني أريد أن أشكو لك من مغص يؤلمني ويدغدغني: إنني لا أستطيع التركيز وشخص يمضغ اللبان بجواري.

هذا الصوت يدفعني لعدم التركيز الذي قد يدفعني للانتحار أو القتل أو الجنون.

لذلك فأرجو منك أيها القارئ المحترم أن تتوقف عن مضغ اللبان فورًا.

(عن الفراغ والفقد)

"صوتُكَ الآن يملأُ بيتي، كل جوانب الغرفة والغرف الأخرى. صوتك يملؤه ويملؤني.. ويُفرّغه ويفرِّغني. ملءُ صوتك فراغ. فراغ في فراغ ينتج فراغًا ولوعةً وألمًا.

هل رأي أحدكم فراغًا يمشي على قدمين؟

أنا رأيتُ وهو إحدى كراماتي.

ملءُ صوتِكما فراغٌ: أنتَ وهو. أنتما تفرِّغانني، كعملية قيء مستمرة لمعدة خاوية. إنكما تفرغان أحشائي الخاوية.. أنتَ وهو. ماأراه الآن هو سائل أمعائي التي ساحت وتركت خلاياها المصهورة بيضاء من غير حرج تسيل من فمي كأنه لعاب، وما هو بلعاب.

(لكن انتظري يا سعاد، عليكِ أن تضعي كسْرة صغيرة تحت "الأنتَ" لتصبح أنتِ). كلامي واضحٌ طبعًا!

"ولا تساوي بيني وبينه! هو خانك ارميه في الزبالة،اتحرقوا سوا، لكن أنا اللي إنتِ مسؤولة عن وجوده، لا هروب آمنًا.... أنا خلفك أتبعك كجثة في دمها".

واضح يا سعاد لا تدعيني أكرر هذا.

سامحيني على ال"هروب الآمن" فهو زمن ثورة، كما تعلمين يا سوسو. هههههه. تسمّين هذا: تناص ولا إسقاط يا سوسو؟

افتكرت، كنت بتحبي دايمًا تقولي: مهزلة.

تعرفي إن مسخرة أحلى.

ولكن من قال لك ذلك يا حبيبي؟ من قال لك إنه ليس ابني أيضًا مثلك تمامًا! وما الضرر في إحساس كهذا؟

حتى من القبر يأتيني صوتُكِ!

بل من هواء الغرفة. إنني أسمم غرفتي بالكامل هواءً وموبيليا وجدرانًا وأسقفًا.. نعم نعم لغرفتي أكثر من سقفٍ. وأنتَ رهينتي الآنَ. جئتني برجليْكَ.

نعم، أنتما خيبتان بحجرٍ واحد. طلقةٌ طائشةٌ مزدوجةٌ،سهمٍ بريشتين مسمومتين. كسل روحي وانهياراتها اللذيذة وذلك التل من الآمال الكاذبة.

(اسمحي لي يا سوسو).

في ليلة أخرى، سأحدثكِ عن صديقي هذا، كنت أريد أن أقولَ إن له ظلا خفيفًا، وروحًا عفنةً، ربما كان اسمه عيدًا. سأحكي لك عن جريمة قتل مكتملة وجميلة يا سوسو.. جمع بينهما بإبداع بعملية ضرب صغيرة. أتعرفين الضرب يا سوسو!

إن عمليات الضرب من أسهل العمليات خاصة عندما تكون الأعداد ضئيلة.

أنتِ وهو تُساويان صفرًا. هذا الصفر هو أنا. هذا الصفر الذي لا يخذلك أبدًا.

والضرب، يا سوسو سهل مخادع ووهمي. ينتهي بحصاد لامرئي، كصورتكما وصوتيكما وشفتيكما وعيونكما على اسكيب والفيس بوك وتويتر أو في الصالة أسفل أو الغرفة المجاورة.كم "لايك" عملتِ النهارده يا سعاد؟ وكام "بوست"؟ ردي يا سعاد. ردي!

الشَبَكة عندك مش سيئة للدرجة دي!

كم مرة غيرتِ البروفايل، ووضعتِ صورة جديدة، ضاحكة بالطبع، لتؤكدي لنفسكِ أنكِ هي تلك الضاحكة، أنكِ تضحكين ما زلتِ.كلُّ الصور بلا استثناء مجتزأةٌ من صور جماعية، تنسحبين منها، تشدين ظلك بعد أن تسحبي الوجه، وتقطّعيه بمشرط وتغيري كل شيء، لتذهبي لزمن الأبيض والأسود، ثم تضعي لمسة بريق تُلمّعين بها ذلك البَهَتَان والانطفاء في الأصل الملوَّن، ثم تلقمينها لصفحتك،وتندسين في مساحة الأفاتار وتؤكدين لنفسك أنك هي. تلقين بنا، أو به أو بهم، بحسب الصدفة، من كان في طريقك يُقَص ويبتر بالزمان والمكان، وتأخذين نفسَك.

الحذف والإضافة صدف. والناس صدف، والقتل صدف. كيف يعامل البني آدم هذا الكائن المسمَّى صدفة؟ يعامله بالصدفة... ﷺ هاهاها..

كم من الوقت كان لي فأخذتِه مني وأعطيته لهم: اسكيب (ك) وفيسبوك (ك) وتويتر (ك) ومواقع تعديل صور (ك).يا سعاد، يا سارقة الزمن!

سأضربكِ به وأترك شظاياكما على الأرض وأنجو بنفسي. ولا بد للنجاة من هرس! سأهرسكما في طريقي إذن.

كلام أمي عني أم عنه أم عنا معًا أم عن الثالث الناتج عن عملية الضرب تلك؟

أم أنه الثالوث؟ كلامها أم كلامي. غدًا أسألها.

أذهب إليها بكلامها وأسألها عما قصدت! معي مفتاح القبر سأفتح وأقابلها. لن تستطيع أن تكذب كعادتها وتقول:

أنا في الجامعة، أو مع أصدقاء أو مسافرة خارج مصر.

أو تقول: هذا سؤال يشبه رحلة البحث عن معنى جملة في المعجم!

مفتاحها الآن معي. صارت رهينتي، هي وأسرارها وأسئلتها.

سأقتسم كلامك معكِ: وسنناقض قانون القسمة هذه المرة، فكلّما قسّمنا الكلمات بيننا زادت! وكلما زادت كلماتنا نقصنا نحن!

سأقتسم كلماتك معك. ستكون روايتنا المشتركة، لكنني سأضع عليها اسمي وحدي، فلا تغضبي.

وقد أترك لك العنوان الذي اخترته "مقام التخلي". وقد أكتب لك إهداءً أيضًا..

أتعرفين؟ لا يعجبني العنوان، ربما أناقش هذا معك في وقت آخر، عندما أجد عنوانًا يغريني. عنوانًا يحمل الصدفة التي صرت صديقًا لها في الفترة الأخيرة.

لا تغضبي هكذا، فهذا ثمن الموت. عندما يموت الإنسان يفقد ويراقب ولايفعل، وتأكله الحسرةُ ولا يفعل.

أليس هذا مايحدث معكِ؟

يسمون هذا موتًا يا سوسو:

أن تفقدَ وتراقبَ وتتحسرَ.. ولا تفعلَ!

(عن البقاء في الظلام)

ما لا ينمو أو يتقزَّم، يخيفني. كل ما هو هكذا لا أحتمله. ظلماتٌ تتغذى من بعضها البعض. المكر والسخرية وغياب الظل والذي لا ينمو ولا يتقزَّم، كلها أمورٌ مخيفةٌ.

سعاد، لم أعد أحتمل كل هذا الآن. من لا ظل له لا ظل له! غاب، ولم يعد هنا.

أتحدثُ نفسَك يا نادر؟

نعم يا سعاد، أحدثني، كثيرًا هذه الأيام.

أتطلبين مني أن أشربَ اللبنَ! لن أشرب اللبن يا سعاد. يكفي ما شربته من ثدييك!

أتطلبين مني أن أذهب معك لنستمع إلى الموسيقى! يكفي ما استمعت إليه معك.

لن أشرب ولن أستمع ولن آتي، ولن أوجد.. تتساءلين أين ذهبتُ؟ لا تعرفين عدد أيام غيابي؟ لا تعرفين سبب رفضي للبن؟

كيف أشرح لك أنني لم أعد أرفض الأشياء، ولا أدعوها، بل هي التي صارت تفعل! فمثلًا اللبن هو الذي يرفض الدخول إلى جوفي، يخاف على بياضه. هههه

وتتركينني، وتذهبين إلى جوجل تبحثين. جوجل لا يخيب رجاء أحد. وتعودين قائلة: إنه الإدمان. أنا سألت الأطباء، وقرأت.

إلى المجاري كل هذا يا سوسو. إلى المجاري أسئلتك وقراءاتك وأجوبة أطبائك المقدسة. والسيد جوجل.

واختفائي؟ ليس اختفاءً؛ لكنه الحضور هو الذي لفظني إلى الضفة الأخرى.

كنتُ في الضفة الأخرى. ولو أتعبتِ نفسك وقرأتِ ماأخطه على الحائط في غرفتي، لوجدتِ اسم الشارع واسمه وصوري وأنا معلَّقٌ في الهواء، فوق سلَّم عجوز، "متلصَّم" لم يعد يعرف نفسَه، تلوَّن بكل الألوان، وبات في الشوارع والجراجات،بجوار التبّاعين وأطفال الشوارع. نام في الشوارع على الأرصفة معي، لكنه شَرِبَ روحي. إنه ظلي، أو أنا ظله. أحمله فيحملني فأحمله فيحملني، ونمشي فيتداخل ظلّانا.

أيام لاأنام. مرابطٌ تحته، آكل وأشرب معه وأكلمه وألعب وأعتذر له وأسبه..

أرسمه فيؤانسني، ونضحك من غباء الخونة، كل الخونة.

إن الخونة بكل أنواعهم، أكثر ما صار يضحكنا الآن: أنا وهو.

وأضحك كذلك من كِبَر حجمه، الذي ابتلع حائطًا وسدَّ على الناس الطريق.

نفس الملامح والعين المفقوءة. قتيل يضحك على الجدران. يضحك مني.

وبعدين طظ فيَّ. مين أنا أصلًا؟ وطظ في أي حاجة. كل حاجة زي أي حاجة، تحيا جمهورية مصر العربية أو العبرية.. إيه الفرق؟ طظ فينا!

لو أتعبتِ نفسَك قليلًا يا سعاد، ونظرتِ لقرأتِ. هذه إحدى كرامات الشهداء، أقصد القتلى: إنهم يصرخون باسم قاتلهم.

العيون بالأخص. تصرخ باسم من قتلها، وتكتب اسمه في الهواء، ثم تتجمد النظرة. مجمدةً قاتلَها فيها. بعضها يضحك، وبعضها يُهمْهِمُ، باسمٍ ما.

وتتماهى الأسماء ولا نعرف القاتل من القتيل. لا نعرف؛ لأن الأسماء أوهام متشابهة وغير كافية. القتْلى والقتَلة أسماء ملتبسة. والبعض تتشابه عليه الأسماء، ولا يجد فارقًا مع الوقت وقسوة الطقس، وارتفاع سعر السجائر، والسكر والمكرونة.

هذه لعبة مسلية: اللعب بالأسماء. بعض الأديان يحرم هذه اللعبة، وبعضها يحرم اللعب أصلًا؛ لأنه يُسفر عن جثث. تبدأ بأسماء تخرج من فتحات الفم، وتتجمد في العيون، وعلى جدران المدينة، وتنتهي بارتفاع سعر المواد الغذائية والغاز والدخان. والخروج الآمن.

تنتهي بالدم الساخن وهو يسيح؛ مما يسبب بُطئًا في حركة المرور والمارة؛ خوفَ الانزلاق.

في تلك الأثناء،العيونُ تخرجُ من محاجرها، حاملة اسم من قتلها،صارخة في الشوارع. وهو سبب لم يدرس بعدُ لضوضاء المدن.

تهيمُ في الشوارع باحثةً عن الأصل للصورة المطبوعة في قرنيتها: لقاتلها. تجده وتشير لنا، تشير لنا، لكن كلانا لا يرى!

هم، لا يرون. لا يهمني! لكنني كنت أنتظر الكثيرَ منك أنتِ.

وتسألين: كيف يرى الواقف في النور ذلك الواقف في الظلام؟

لأكن صريحًا معكِ، هي لا تقول لي الكثيرَ. فالأرواح تفضّل أن تضل أكثر من أن تتكلم. أو تجيب عن أسئلة.

(لا، الأرواح المقتولة لا تضل، إنها تطارد، تتعقب، ترى في عماها. وتنادي على رأس البعد. وتدور خلف قاتلها كمجذوب خرج عن الجاذبية. يتخبط في فضاءات مصادفة. تجري خلفه فاتحة العيون كسمكة تفتح عينيها أكثر في وجه قاتلها. تفتحهما أكثر بعد الموت. كما رسم نادر. وحتى لو اقتلعتهما، فالفراغ يحملق أيضًا. لا يصبح فراغًا، بل يصير فضاءً. وهكذا نظنها تتخبط،لكنها تقنص).

نعم، لكن لم لم تقولي لي هذا، كنت أحتاج أن أسمعه منك. تكتبينه هنا في الأوراق!

في غرفتي،أطفئء النورَ، وأعري الجدرانَ وأرسمُ. أتخبط بين الألوان والوجوه أيضًا، وأخف في فضاءات الجريمة، أراها تتكرر كمشهد فسد شريطه السينمائي، فظل يتكرر، ويتكرر، والموسيقى تتمدد حولي وتلتف رقاب التنانين حول رقبتي، هذه رقصتي أنا. ثلاث سنوات من عواء التنانين.

أتعوي التنانين أم تضرب بفم من نار؟

صوت خارجي: اذهبْ وقابلْ الإجابة.

صوت داخلي: هههههههههههه، حاضر.

أطفئ نور غرفتي، وأقرر أن أرسم في الظلام. أنهض في ظلام الغرفة، وأرسم بدمها فوق الحوائط، ما يضايقني هو أن السقف بعيد. وصعود السلم صعب.

وأخط وأتعثر في لون أو علبة ألوان، وأمسك الريشة من شعرها، أفكّها من تلبكها اللَزِجِ، أشم رائحته، وتلك الرأس القتيل أراه، أمسك الرأس بيديَّ، أمسِّده، أقبِّله، أعتذر له،أتكور، وأبكي، فتربت على كتفي، أبكي أكثر، فتزمجر:

لا وقت للبكاء. والبكاء يكون على راس الميت. لا عزاء للقتيل. فُضُّوه هذا العزاء.

في الظلام، لا تستطيع أن تصعد كثيرًا لأعلى؛ فالسقف يأخذ بُعدين: بعده وبعد عماك. الظلام يبعد الأشياء أكثر! وكنت لاأظن ذلك!

ومن جديد، تتكرر وتتمدد تلك الموسيقى، ويمطر السقفُ دمًا. يمطرُ أسماءَ شوارع كثيرة وجثثًا. يمطر جثثًا كثيرة. أرتعب.

ثم لا أستطيع أن أبقى لأكثر من ساعات أعمى في ظلام الغرفة، لا أحتمل. سأشعل النور. أريد أن أنزل. والسلالم كائنات غريبة؛ تصعدها بسرعة في الظلام لكن نزولها ليس كذلك.

الظلام أيضًا يقلل الأكسجين. فأنت تخاف فتتنفس أسرع،فتختنق أسرع.

أهذا مايحدث لي الآن؟ ترتعش يدايَ، فيهتز السلم، وأسقط وتنزف جبهتي، ويختلط الدمُ بالدمِ، دم الميت بالحي، القتيل بالشاهد.

القتيل بالقاتل. الدم بالألوان! ويصعب التصنيف.

وترتبك فصائلُ الدمِ. الاختلاط يصنع فصائلَ أخرى لم توضع في حسابات الطب البشري. فصائل تسمم من يُحقن بها. فصائل تهاجم، تُسمِّمُ بالنظر. فلاتنظروا لدم القتلى؛ فدَمُهم مسمَم.

لذا سأترك دمي على دمهم في الغرفة،ودمهم في دمي، وسأهوي كمن يسري السم في جسده.

ألا ترون الدم؟ خطأ من هذا العمى؟

أتحسس الحائط، أصل لزر النور. أضغط، أرى الوجوه التي رسمتها في الظلام.لا أجد وجوهًا، كنت أرسم وجوهًا لكنني وجدتها أشلاء في أسنان: إنهم يأكلون لحم الشباب.

"اكتمُ جرحي، لكن البُن لا يكفي، سعاد لم تترك ما يكفي من البن لكتم الجرح.

ما زالت جبهتي تنزف. ما أسوأ طعم الدم، إنه يسيل متجهًا إلى فمي.

"لا أذاقكم الله طعمَ الدم أبدًا".

تكتب سعاد؟ أظنها هي التي كتبت عندما عدتُ إليها نازفًا من مكان ما.

فهل أحذف هذا؟

لا، إنه دعاء، والدعاء خير كما كانت تقول.

"لا أذاقكم اللهُ طعمَ الدم أبدًا".

*** * ***

(عن البكاء)

أيقظتني أمي في تلك الليلة، احتضنتني وهي تبكي، وقالت ضمني بقوة. كانت رعشتها تتداخل مع رعشاتي التي لا تتوقف فيحدثان نشازًا متناغمًا.

تبكي وتقول أنا خائفة.. سيحدث لي شيء.. لو حدث لي شيء انتبه لنفسك.. عِدني..

وأنا في منولوج آخر أقول.. المرة الأولى التي تحضنينني فيها منذ سنين تبكين يا سعاد!

الله الله الله.. ما أطيب نوبات الهلع الليلية.

ونامت بجواري في غرفتي على غير عادتها.

أمي: دقيقة الجسد دِقة ساعات بيتنا.. بيتها! هذا ليس بيتي. أنا لا بيتَ لي.

لا أريدُ بيتًا، أريدُ أرضًا تميدُ بي.

تغيرتْ كثيرًا أمي.. فتارة تنام في المطبخ، وأخرى في الحمام، ومرة نامتْ في سيارتها تحت البيت، ولم نتمكن من إخراجها منها، كانت تبكي بكاءً يمنع الاقتراب منها أصلًا وليس إقناعها بالخروج.

مرتان حدث لها ذلك. مع هذه الفولكس.

خرجتُ مرات ليلًا؛ لأطمئن عليها من خلف نافذة سيارتها. كانت تظن الزجاج يحميها! كان يكشفها. وكنت أضحك من الغيظ، فلا أدخل ولا أخرج.

وهذا الموت، ما سببه؟ أيموت الإنسان عندما يستعصي عليه الفهم؟

عمومًا، من أنا لأسائلها أو أقاضيها؟ مستخدم لبيتها، كفندق للنوم وضرب البودرة التي أضعها في خطوط وأدور وأسقط وسطها حاملًا تلك التكشيرة المنحوتة على وجهي والتي لا معنى لها. وقد أغرس سن الإبرة في العرق، أحقنها بالمادة المُلَطِّفة المهيّجة، وأعلو وأدور. وأعود فأسحب الأبيض الصافي، فيتهيّج الأنف ويحمرّ، وتأخذ الأشياء الخفة التي تحتاجها.

أصير أخف من الهواء، لكنني إن اصطدمت بشيء أكسره.

ثم أراني ورأسي تحت ماء الحنفية، ويد تدعك مؤخرة رأسي، وكلام آتٍ من بعيد: كفاياك، فضحتنا.

وبعد أن تُجَفّفَ رأسي، لا أجدُ أحدًا. وتبقى جملة تدور كذبابة حولي، أراقصها ثم أهشها.

هتموِّت نفسك!

.....

جميل يا سوسو.. تكتبينني بمحبة، لكن هل تشرحين لي الجملة الأخيرة:

هاموِّت مين؟

(عن فن التجاهل)

تجاهلْ. تعلَّم فنَّ التجاهلِ.

هكذا بدأت سعاد، ونحن نأكل معًا في المطبخ، ويسند كل منا ظهره إلى كرسيه وحائطه، والجهة التي له. لا أذكر سبب تلك النصيحة ككل نصائحها.. فقد قررت أن أطبق هذه النصيحة... هههههه

عندما يجمعني بها المطبخ نضحك كثيرًا، المطبخ مكانٌ مَرِحٌ. أكثر الأماكن مرحًا في هذا البيت، وحتى ساعته المزعجة مرحة (تختلف عن كل ساعات هذا البيت) تدُقُّ برفق، وتدُقُّ أكثر من مرة لتوحي لنفسها بأنها أدّت واجبها، وأنك مؤكد سمعت وانتبهت.

تدُقُّ أكثر من مرة لزمن واحد. العطب الحقيقي أنها وهي تكرر تتخطى ولا تدرك دقتها، وتبقى تصدقها!

تدُقُّ على صوتِ ضحكِنا، وأنا أحكي لها عن "مهند" الذي ضُبط في كمين جيش وهو عائد من شط "السحر والجمال" مع عادل، وسعاد تحب عادل كثيرًا، وتتعاطف معه أكثر مني، مع أنه ضرّيب بودرة من زمان، قبلي بكثير.

أكملْ، تقول آمرة وعيونها في القهوة.

كانوا راجعين بالعربية بالليل، على طريق الساحل، اشتروا البودرة، عادل ضرب في نفس المكان "المدق".. وإيه المدق ده؟

ده فتحة بين جبلين، العرباوية بيبيعوا فيها.

ولما غرزتْ عربية مهند وهي داخلة، العرباوية جم وخبطوها، من ورا، خبطة محترمة يعني..

من غير ما تسألي، عشان ما توقفش لهم الشغل، ده مكان رزق: سوق، بيع وشرا. مش المفروض أي حاجة تسده.

المهم إن عادل فتح إزازة الميه المقطرة.. ورجَّ البودرةَ بالمية، وحَشَا الحقنة، وضرب. ولما طلب من الأقمر يضرب قبل ما يتحركوا رفض، وقال له لما ندخل القاهرة أحسن.

مهند بيسوق، وعادل بيسمع بوب مارلي، والصحرا حواليهم، ويختار عمنا مهند نقطة ما، مكان بالصدفة يركن العربية فيها، من غير مناسبة، ويخرَّج العِدَّة، ويجهز ويحقن دراعه.. وراسه وألف جزمة إلا لازم يكمل. مهند عارف الحتة كويس، يقوله هيمسكوا دين أبونا، التاني ما يسمعش.

وهُبَّاااااااااا يتحرك الكمين كله وييجي علينا، أقول له، قلت لك، ياما اتمسكت هنا. أقول له دوّر

واطلع، لكن الحج كان بيروح. عينيه اتسطّرت..

إيه اتسطرت دي؟

بقت سطرين، بقت خطين من الضرب.قفلتْ يعني.

وبدأ ينفذ الأمر وهو رايح (من البودرة)، وفجأة العربية تخبط في حاجة... تقوليش جبل المقطم..

إيه دخلوا في الجبل؟

مش هم اللي دخلوا..

استنى! ليه بتقول علينا... الكمين بييجي عليهم هم مش إحنا؟

مش مهم. مش مهم يا سوسو، المهم، كانت مدرعة جيش، ماكنْش شايفها صاحبنا لما راح، وهي واقفة بعرض الطريق عشان تقطعه علينا، البودرة اشتغلت وكان "بيروح"، حتى الحقنة والدم كانوا لسه في إيديا.. أقصد هو.....

والعساكر والأمناء هجموا علينا، عليهم، أقصد،وحاوطونا، حاوطوهم بعد ما شدوا علينا الأجزاء قصدي: عليهم.. عليهم...

استنى، إيه الأجزاء دي؟

السلاح يعني،السلاح، وبدأ الأمنا يحرَّزوا الحقنة، فاضل ياخدوا دراع الواد حرز كمان. ويجرونا للضابط. عينيا كانت زايغة زي عينين البومة باابص حواليا، باابص في كل الجهات، عايز الضابط صاحب الليلة دي كلها، لأنه هو اللي هيخرجنا منها.

وصاحبنا بيضرب سبعات في تمنيات... بيتطوَّح من تأثير البودرة.. ما هي بدأت تلعب في دماغه..

وييجي الظابط، ونقوله... إحنا ولاد ناس، وحتى جوز أختي رائد جيش وممكن كان دُفْعتك، تعرفي يا سوسو، سخيف جدا إنه بينه وبيننا سنة سنتين فرق، فعلا ده أوسخ ما في القصة. حتة عيل قدك عامل عليك دكر.

وأطلب له جوز أختي على التليفون، ويحكي له القصة..

وفجأة يا سوسو ألاقيلك ابن الكلب بيقوله:

أيوه زي مابقولك كده: إيديهم مخرمة.

وبعدين يقول بمنتهى القرف: اتفضلوا. عمرك شفتي إنتي حد بِتِف على حد ويقوله اتفضل هههههههه.. سفالة.

فيعمل إيه العبقري مهند؟ يروح ناطط ع الظابط وبايسه..

وهنا يبتدي الظابط حفلة "تلطيش".

كام قلم على الوش والقفا؟ ماتعديش.. مش أقل من عشرة أقلام وبدون ما يقف. كأنه خايف يقف.

دا غير الفضيحة قدام العيلة، صحيح أن أختي وجوزها عارفين..لكن الفضيحة في التليفون حاجة تانية بجد.. ولما ينقلها لك ناس غرب.. فعلًا هي دي الفضيحة.. بين العيلة الفضايح نوع من التسالي.. بدل اللب اللي بيتخن.. الفضايح بتاكل المخ وتخسسه فماتفكرش.. سيبك من الهبل اللي بقوله ده. بس فعلًا أي حاجة على غفلة وحشة.

أختك مين يا نادر؟

ما تركزيش يا سعاد، أنت فاهمة.

يعنى أخت عادل وجوزها. وكانوا عارفين إنه بيضرب لأنه كان بيحشش معاه كتير، لكنه باعه قدَّام العائلة؛ عشان يكسب بُنط قدام حماته وحماه. واطي.. ماطمرش فيه سهرات وعزومات الحشيش. تقولي إيه، ماهو ظابط.

المهم..تعرفي يا سعاد، ازاي أدمن الواد عادل حبيبك..

هاأحكي لك.

هو قرر أنه يوقَّف الجامعة، ويشوف الدنيا أولًا، بعدين يكمل تعليمه. أخد بعضه وسافر شرم الشيخ، واشتغل في مركز تصوير تابع لفندق كبير هناك.كان موهوبًا، والسياح على كل لون وقتها. ياخد لهم الصور، يكبِّرها، ويبيعها لأصحابها.

خلفية بحر، خلفية هرم، أبو الهول، الجن الأزرق، اللوحة من تلتميت إلى تمنميت دولار. تخيلي.. شرم أيام العادلي كانت حكاية، بعزَّها يعني.

وكان معاهم في المركز واد من الدقهلية، بيكسب بنفس الطريقة: فلوس فلوس فلوس... مالهاش عدد ولا نهاية. ممكن في يوم تكسب تلاتة آلاف ويوم تاني عشرين ألف. أنت وحظك!

المهم لما بدأ هناك مكنش يعرف الضرب. وأقرب أصحابه " عبد الموجود "كان محترم جدًا. عارفة لا نسوان ولا مخدرات ولا حاجة، كان فاضل يصلي.

طب تعرفي إن الواد ده كان السبب في إدمان عادل..!

ازاي يعني؟

كان كل إجازة يرجع عمك عبد الموجود ويقوله: جبت أرض،وبنيت دور واثنين وثلاثة، ورفعت عمارة.. والتانية. ابن الكلب ده بنى البلد كلها. صاحبك يسمع الكلام ده من هنا، ويتجنن من هنا،

يسكر أكتر ويغرق في النسوان وبعدين السياح علموه البودرة.

النكتة بقى، إنه قعد هناك 5 سنين بعد ما كان رايح سنة واحدة، وكل يوم يضرب فيه، في لحظة الضرب بالظبط أمه تتصل بيه.. مش قبل ولا بعد. مش وهم بيجهزوا أو بيشتروا، لأ، وهم بيضربوا. وهي هي نفس الجملة:

خد بالك من نفسك يا حبيبي وما تعملش حاجة غلط.

تخيلي 5 سنين ع الحال ده.

ولما البلد وقعت والبودرة شحّت بعد الثورة، كان صاحبنا يرد على اللي بيسألوه بيضرب ولا بطّل؟

ماما.

مش فاهمة: يعني إيه ماما؟

يعني بح، مفيش.

وده إيه علاقته بأمه؟

مش هي كانت دايمًا تتصل وتقوله مايأخدش.

فأصبحت لازمة بيننا.

سوسو، اشربي القهوة بردت.وخدي منديل وما تضحكيش وانتي بتشربي، هتشرقي.

وترن ضحكة سعاد حوالينا في المطبخ، فتجعله أكثر مرحًا. هذا المرح يكفي لأختلق لها آلاف الحكايات بس عشان أسمع الضحكة دي هنا في المطبخ.

آه والله، زي ما بقولكم كده.

وهي ماتعرفش ده.

*** * ***

(عن الرمان)

ليس سهلًا أبدًا أن تكتشف رمانة، أن تدخلها، وتضيع في تجاويفها. ليس سهلًا أبدًا. ومن الغباء أننا لم نستطع اختراع آلة تناسب تلك الدهاليز والتجاويف والمغارات. آلة للمتعة؛ تتيح لك لذة الاكتشاف وليس جَزْره بسكين.

آخذُ السكينَ، وأضعُ الرمانةَ تحتها، أشقها نصفين فتنزف، ويُغرق يدي دمُها، وبينما يداي ترتعشان لنقص المخدر، وهو الذي دفعني أصلًا لالتقاط تلك الرمانة دون غيرها ككل صدفة ليست صدفةً، فهي كانت الأكبر والأكثر تماسكًا وصلابةً ونعومةً ولمعانًا، وغرورًا، وهي ميزات تعطيك كل الدوافع لإشهار السكين بعد أن تصطفيها وتنزعها من أمان القطيع الذي كانت تظنه دائمًا وحاميًا.

تسحبها كعجل شم رائحة السكين ورأى دمه المراق فزاغ البصر، وضاع الصوت.تضعها في كفك وتتملاها، كل تلك المزايا، صارت سببًا لاصطيادِكِ ياحلوتي، أرأيتِ أن الأمر نسبي جدًا، وأن العبرة كلمة بلا معنى.

تعالي، هاتي جسدك الفائر هذا، الفائر الذي يليق به الذبح.اكتمي نفَسِك.

تخاف على كفك فتضعها في الحوض، وتَهِّم بفلقها، فيأتيك صوت سعاد من خلفك دون مناسبة:

ما دام بتترعش كده ماتسيب الشغالة تجهزها لك، إنت غاوي وجع قلب.

طيب، ما تسيبيني في حالي، هو كل حاجة تعملها لي صباح، عايز أعمل حاجة واحدة بدون رفضك أو ملاحظاتك ونصايحك. أصلًا عايز أعمل حاجة..

يعني عاجبك تقطع إيدك، وانت في فترة الانسحاب، إحنا ناقصين مصايب.....

وطبعًا أمي لا تُناقَش، فهي ترى الأصوبَ دومًا، ودومًا بالتالي لها حق التوبيخ واللوم والنقد والاتهامات.

وأبي لو كان هنا، لقال بالطبع إن لم يكن الأمر يتطلب منه شيئًا،أو فعل أي مجهود لو كان لقال، وعيناه تحت زجاج نظارته ماركة الكارتييه ذات العدسات الألمانية التي تحتمل كل ما تراه:

سيبيه يعمل اللي عايزه، دا راجل وناضج وقادر يعمل الصح، ما بقاش نينو، دا نادر افهمي بقى وارحميه شويه.

حضوره كغيابه كلاهما مزعج. فإن غاب أتخيله وأرى مايريد، وإن حضر قال ما لا أريد. ليست كل النوافذ للعصافير وزقزقاتها كما ستقول سعاد بعد قليل. هذا الكلام ينطبق عليهما.

أبي وأمي يشبهان الحكومة والمعارضة. فهو يترك لي الحبل على الغارب طالما لا يكلفه الأمر شيئًا، وهي تبكّت وتوبّخ وتنتقد وتتهم وتثور وتنصح، ولا تقدم بدائل. إنه يقدس نعم (ه) وهي تقدس لاء (ها). وأنا كفرت بكليهما. لكنني أكن لهما كل الاحترام، فقد ساعداني على التخلص من نفسي. إنهما مخلصاي. للبشرية مخلص واحد وأنا بدل الواحد اتنين.. هههه هههههه هههههه هههههههههه..

هما وبينهما أنا. دفاعه عني هجوم عليها، وانتقادها لي استعراض لقدراتها الفكرية أمام جهلي، لكن أمامه أساسًا..

حتى الآلهة ترى وتعتني وتحاور.. حتى الآلهة في عليائها.. ترى وتعتني وتحاور. لكنهما أكثر من آلهة! وبتُّ أنتظر غيابها وغيابه، لأمسك بالرمانة وأمص دمها. أسلخ جلدها، فروة رأسها بالذات، لا بد للسكين من فيضانٍ.. أقصدها من مدخل آمن وسهل وسالك، أقسمها نصفين، وأختلي بكل نصف على حدة، هكذا منقسمة.

أعوم بأصابعي بين نصفها المبتور، أضغط هنا، وأفصِّص هناك، وأهرس هنا، أتحسس هناك، مغمض العينين أراها، حباتها رطبة غضة تتفجر حياة وعسلًا ودهاء وسذاجة. أدهس بضع حبات، وأفتح عيني لأرى ذلك التماسك وقد ارتخى. في كفي أضع الحبات التي مصصتها وأرى.. أرى.. ما أرى؟ أرى.. ما أرى؟ أراني.

و تكتب سعاد "أنها تتفق معي وأنه ينبغي احترام الرمان أكثر".

سأحذف كل ماكتبته؛ لا أحب أن يتفق معي أحدٌ.

ولا أن يختلف أيضًا. لا أحب أصلًا. ولا أحد يحبني.

طبيبتي تقول إن هذه هي مشكلتي: أن جميع الناس يكرهونني، بينما لم أقابلهم بعد.

هي ليست مشكلة يا حكيمة الحكما، إنها عادة.

أنا غير موجود، فلمَ افتعال التواصل!

لم يا سعاد؟

أنظروا، لا أحد يجيب. أتسمعون الصدى مثلي؟ إنه صوت صوتي وحيدًا يرن.. وهو أمر مزعج جدًا، مرعب في إزعاجه. أن تسمع صوت صوتك.. يسمونه الصدى،وهو تزييف مقصود! عادة يعني.

كعادة أن تسأل ولا يجيبك أحدٌ. هههههههه. للعادات خفة ظل، والأمراض كذلك.

وتكتب سعاد في ورقة جانبية، تلصقها بمادة ما، لا تلصق جيدًا، فالأطراف تكشف ما أرادت إخفاءه من تسويد لخطأ ما، أعرف أن ثمة خطأ، ولاأستطيع تبُّينَه، تكتب فوقه:

"فإذا كان كذلك فلمَ التهالك على الهالك؟".

فأجيبها:

تهانُك؟ ما أخبار آخر موديل من "الفولكس فاجن" يا سوسو؟

(عن السهرة مع سعاد)

العشاء مع سعاد الليلة. حكايه سعاد لما تكون صافية.

تحس إنك واخد كرسي على شط البحر. لأ، على شط قلبها.

سعاد لم تكن تحب الضحك كثيرًا، تفضَّل الابتسام أكثر. لكنني لم أكتشف إلا هنا، على الأوراق،لمَ؟ ولمَ كانت تضع دومًا، يدها فوق فمها، كلما ضحكت.

تكتب أنها تشعر بلا راحة أن يرى الآخرون فمَها مفتوحًا. تسميه نوعًا من الاقتحام لباطن ما من بواطنها. لكنها كتبت أيضًا أنها تكره شكل أسنانها المفروطة، تلك الثغرات بين أسنان الفك العلوي تغيظها جدًا تقول إنها تذكرها بثغرة 73، دي واحدة وعملت فينا كده، فما بالك بثلاث ثغرات: هزيمة كاملة يا ابني. الآن أضحك مع سعاد على الورق، أيضًا.

بعد موت سعاد، تَضاعَف كل شيء. وبالأخص الضحك.

لا أتذكر ما حدث في 73، ولا أحب قراءة تواريخ "الانتصارات". كله أكاذيب وادعاءات، الهزائم أصدق. ماؤها أصفى. يمنحك فرصةَ رؤيةِ وجهك أوضح. بحر زيت يجلب النعاس. أليس ممتعًا أن تنعس؟ ماذا تفعل بموجات صاخبة تجلب الصداع والأغنيات الوطنية والغثيان.. يا سعاد. لا أحب الحركة، السكون أحلى يا سوسو.

ليلة نتعشى وسعاد تميل برأسها على كتفي وأبي غائب في إحدى مغامراته، أقول له ليتكَ تموت، فالغياب يبقيك احتمالًا سخيفًا بيننا، غِبْ لألتهم سعاد. غبْ، فبغيابك يمكن لسعاد أن تراني. أليس هذا ما يحتاجه الإنسان: أن يُرى.

يحدث في تلك الليلة أن أشمَّ رائحة عطرها، والأهم رائحة ذكرياتنا معًا. تقول، كنتَ في السادسة من عمرك، واستيقظتُ على صوت رعشاتك، ماما أنا خايف، أخدتك في حضني وفكيت صوابعك المتشنجة وسألتك مالك حبيبي، عايز سكينة كبيرة، ليه ياعيون ماما، عايز أقسم العالم نصين، وتدخل المطبخ، وتسحب السكين، فأنتفض، آخذها من يدك، أشدُّ وتشد، لكنك تصمم والغضب يبقيك أقوى.

أتعرف أن دمًا كان بيننا في تلك الليلة. لقد قطعت إبهامي قطعًا غائرًا، انظرْ. حُفرة قديمة منك في الجسد.. من نوبات هلعك المبكر. هذا إلى جانب فتح البطن يوم ولادتك. هذا الشق الكبير بعرض البطن، لكي تأتي للعالم.

وتضحك سعاد وتسب العالم الذي كان عليها أن تتركني أقسمه نصفين.

تشرب قليلًا وتكمل.

ست سنين وكام شهر، طلبت مني طلب عجيب كمان، أشعر بالذنب في أنني لم أكن على قدرك.

انتهينا من عمل الواجب. فتحنا نوافذ الحكايات والأغنيات، لكنك منعتني وسددت نوافذي وقلت لي، ماما عايز كاميرا كبيرة،كبيرة قوي، ليه حبيب ماما، عايز أصور ربنا، هو بيحب يتصور، وعايز أحط صورته هنا. وأشرت إلى حائط ما.

لكن ربنا مكانه مش هنا حبيبي؟

ليه؟

جنننتي هذه الجملة يانينو، سألت طوب الأرض، ولم ينجدني أحدٌ برد يليق بخيالك.

على فكرة لقيت رد؟ من زمان وأنا نفسي أسألك!

يا سوسو.. الخيال بيعرف يتصرف، والأحلام مابترحش أونطة. وانتي لقيتي إجابة؟

البسطامي جاوبني مرة.

مين البسطامي؟

واحد صوفي.

فقال إيه؟

قال لي إنك تقدر تلعب مع ربنا استغماية زي ماكنت عايز. بس قال لي ده متأخر، كنت كبرت وبقى عندك لعب تانية.

تقصدي الجرافيتي صح؟ الجرافيتي استغماية يا سوسو.

مع مين؟

مع كل حاجة عايزة تخنقنا.

ولما تمسكها؟

ولما أمسكها! يلا ندفع ونقوم يا سوسو. أنا بردان قوي.

ويأتي الجرسون، وتنكسر عيناه، أقصد نظراته على المائدة، تنكسر على البقشيش، و نعود، نصعد الدور العلوي. تتوجهين معي إلى في غرفتي، تفتحين النافذة،كما تفعلين دومًا، كلما دخلتِ عندي..

أطلب منها تركه مغلقًا، وهل تسمع سعاد أحدًا!

تنظر من النافذة، تمد يدها وهي تتكلم، اتسخ العَلَم جدًا. لازم نفكه ونغسله ونعيده مرة أخرى،

أقول لها، اتركيه. لكن كأنه كان ينتظر فتح النافذة. يرمي بنفسه إلى الداخل ملتويًا، وتبقى أطرافه مربوطَة بمشابك تشبكه بحبال الغسيل، صف أول. آخذه من حوافِ النافذة وأخلِّصه ثم ألقي به للخارج.. أضحك وأنا أراقبه بعد أن أغلقت نافذتي دونه، كم مرة فعلتُ بكَ ذلك، وما زلت تحاول، كم مرة شددتُ أذنيك وقلت لك لا تدخلْ هنا.

إنها أفكار سعاد. فموضة هذه الأيام، شبابيك مصر صارت كلها أعلامًا متسخة ملتوية أو ممزقة. كل الأعلام،كل الأعلام وسخة، وانت مش على راسك ريشة يعني!

وأعلم أنها ستأخذه، وتغسله بنفسها، وتعيده ثانية، سعاد مشكلتها معي أنها لا تريد أن تؤمن بالتراب والوساخة والقذارة، كما قلت لكم من قبل، لا تريد أن تحيا معها بدلًا من أن تقاومها. لا تريد أن تعترف بأن الأولوية للقذارة.

وكانت قد كتبت في صفحتها على الفيس بوك.....

آسف، سامحوني، فقد نسيت ما أرادت قوله في هذا الموضوع، والأوراقُ لا تقولُ شيئًا!

*** * ***

(عني وعنها وعن الحوار)

مالك؟

مخنوق.

بتبطل؟

لأ.

أمال إيه؟

..... مش مهم.

مش مهم. تبقى سابتك؟

..... مش مهم! مش ناقصة خنقة الحكاية! مش عايز أتكلم.

مش قلتلك؟ ماتحكيش ماضيك لأي بنت بتحبها، لو عايزها تكمل معاك.

طبيعي يخافوا، فعشانهم هم ما تحكيش أحسن.

إزاي ما احكيش؟

إزاي تحكي؟ موضوع فخر يعني. حاجة تفرح؟

الحكاية مش حكاية فخر ولا فرح، الحكاية كلها إني مش عارف إزاي ولا ليه باحكي.

المخدرات... ما بتخلكش.....

كنت عارف! لأ يا سوسو.. بعد عشر سنين بتضربي بتعرفي إزاي تلعبي اللعبة، وتسوقي. مش المخدرات السبب.

أكيد.. دايمًا بتقول كده.

تخيلي عشر سنين مع حد، عرفتوا بعض، بتعرفي إزاي تخليه يسكت، وما يتحكمش... دي الخبرة. أنا خبرة يا سوسو. أنا بانصح العيال الجداد في السكة، و....

المهم؟

مش مهم خالص.

أمال إنت ليه مكتئب كده وحزين؟

مكتئب ولا حزين؟

الاتنين.

حزين... ده عادي، مكتئب مش هيطوّل. هاتصرف، ماتخديش في بالك.

أمال أحمد فين؟

طب ماتحاول تقول لها إنك هتبطل عشانها، وإنك بتفكر في العلاقة بشكل جدي، ده بيطمن البنات.

أولا محدش بيبطل عشان حد. ثانيًا مش عايز أطمّن حد. أما الشكل الجدي ده، تقصدي الجواز هه؟ فهي نفسها مش عايزة. ده تهديد لها يا سوسو مش طمان.

شفتي بقى إنتي بقيتي موضة قديمة إزاي يا حبيبتي.

تشربي كركديه أنا هاجيب بيبسي.

لأ، مش عايزة حاجة.

يعني هاتفضل كده، عمرك بيجري والعداد بيعد وانت....

أنا راجع أهو، عايز الحمام.

*** * ***

(عن الطواحين)

هو: أريد استراحة محارب.

هي: ممَ؟

هو: من محاربة طواحين الهواء هذه.

هي: كفَّ عن الأوهام، لا شيء اسمه "طواحين الهواء".

هو: هذه مجرد صورة عزيزتي!

هي: وهذا ماقصدته بالضبط أيها العزيز.

أنا: أحب هذا الحديث، يبدو هادئًا. متى حدث هذا "الحدث" يا سعاد.

لا تردين! طيب، سأذهب اليوم لطبيبتي، طبيبة النفس والروح وسأسحب ملفي من عيادتها. كل الفحوص والتقارير والتحاليل التي تقول إنني:

اضطراب وسواس قهري Obsessive Compulsive Disorder ويختصر ب OCD. أي (الأفكار التسلطية والسلوك القهري).
الرهاب الاجتماعي Social Phobia

اضطراب شخصية معادية للمجتمع. Antisocial Personality Disorder

أو: نوبات هوس. (Mania) ثم .... الأمراض مبدعة، لا تنتهي. هناك على الأقل عشرة أمراض أخرى هي أنا أيضًا، لكنني أنساها.

كل هذا أنا.. نعم أنا. فأنت تراني حائر في كل لغة وجماعة. ضائع بأسمائي، وصفاتي.

"سأضرب " كل مافي جيبي. "أرفع" 2000 جرام ترامادول، حلبة ملاكمة: أضربه فيضربني.

أضرب به جسدي فيذوب فيّ ويذوّبني: أسناني تتحلل، عظامي،ذوبان واحد باتجاهين.

لمَ نسمِّي تعاطي المخدرات ضرب؟ لأنه ضرب. التعاطي أمر آخر.

كلها كلمات، تلك التي تعذبني وتحرقني وليس معي فائض دموع لإطفاء جسدي وروحي.

حروق ملحية تشبه بلهارسيا وضيعة الحجم تلتهم جسدك بتلذذ. تدخل في غفلة منك وتتجذر.

وتعمل على أجهزتك في غفلة منك لا تتوقف، طالبةَ جذورًا تسميها أنت آلاما لاتطاق، بينما تملؤك خرابًا.. ثم ترى كيف أن هذا الخراب قد ابتلعها هي أيضًا. فتعوم معك في شظاياك المتحللة، وتذوقان معا لذة النهايات. تسكنان وتواجهان ما كان.

ذنبُ من؟

ترفعان كأسا واحدة، نخبًا واحدًا، تسميانه تعادلًا.

تعذبني الأصوات: أصوات أطبائي الواثقين من نطفة الطين هذه.

نعم يبدو هذا. فقبضاتهم متسخة جدًا، شديدة الاتساخ من فعل الخلق!

أطبائي الأعزاء: تريدون غفراني أكاذيبكم؟ حسنًا اكتبوا تقريرًا، واعترفوا بكذبكم وشركم ودعوا الأمر ينتهي عند هذا الحد.. هههههه. ما أهون التسامح وما أحقره!

إنه وضيع وضاعة البلهارسيا!

أمي على حق: تخلَّصْ من الأوهام؛ لتمنح مكانًا لأوهام جديدة،جددْ أوهامَك!

كل ملفاتي الطبية معي في حقيبة ظهري. سأمزقها الآن وسأرمي بها في أول سلة زبالة. نعم سأفعل. سأمحو عريي أما أنتم بأوراق التوت التي تلصقونها في كل مكان من أجسادكم أنتم عري أقبح. ومن جديد....

ترامادول... باركينول... باراسيتامول... مدد.. مدد.. ضموني لأحضانكم.. ضمني أيها العري.. أليس رائعًا أن تجدَ الأشياءَ وقتَ طلبِها! وأليس رائعًا أيضًا أنها تزول فور وصولها!

وصول زوال / زوال وصول /وصول زوال، دوران في دوران..وتميد بك الأرض. ياسلاااااااااااااااااااااااام!

وأنا جالس الآن على مؤخرتي فخورًا جدًا بفلسفتي أشعر بجوع ما، لا طاقة لي على إشباعه. الجوع يشعرني بالغثيان والميل للقيء. جسدي يدمر نفسه: تدمير ذاتي.

أمي سأتوقف الآن. ماتحكينه في دفترك يدفعني للالتهام. التهام أي شيء.

إنني مثلك تافه مجوَّف وجالس على مؤخرتي طوال الوقت بين أوراقك اللعينة. أوراقك التي تزيدك غموضًا وغباءً ليس إلا.

أنت وغربتك وضياعك وعريك.

وهو غباؤه وقلبه المفتوح عملية قلبه المفتوح التي لم تنجح كما أراد لها.

ولكن ما يضيرني من كل هذا الهدم، كل هذا صار الآن.. تحت الأنقاض.

* * *

(عن اللعنة)

هل ذقتم لعنة الاستيقاظ على رنين تافه لتليفون قذر يشبه لون وصوت وكلمات من يتحدث، عليه بقايا أطعمة عفنة، لُطع من حلوى طحينية فقدت انتصابها، مثلي عندما أصبت بالزهري.

فوق التليفون صرصار صغير يلحس الأوساخ. أنظر إليه، أطلب منه أن يجيب هو، يرفض فأبصق عليه وأجيب:

نعم؟

حضرتك... أيوه حضرتي....

أمك فاقت من الغيبوبة وبتطلبك؟

نعم؟ مش دفنتها أول امبارح؟ إنت مسطول يا أخ انت؟

مع حضرتك مستشفى المجرة؟ ما تتأخرش لو سمحت.. مستنيينك. هي طلبتك أول اسم.

المجرة.. آه.. المجرة.... سعاد تاني، دا اللي كان ناقصني. ومفيش اصطباحة كمان.

يبدو أنه لكي تموت لايكفي أن تقف في مفترق طرق، أو طريق لا تؤدي لشيء.. ربما عليك أن تقف في عقرب ساعة وتتعلق به بقوة.

أخبروني أنتم،ماذا أفعل مع تلك المرأة وقد جهَّزتُ نفسي على أن أزوها في قبرها اليوم، فخرجت لي منه؟ ماذا أفعل بهذا المفتاح.. مفتاحِ قبرِها؟

كيف أقابلها في غرفة في مستشفى وقد رتبت أموري على زيارة قبرها.

إذن وتحسبًا ولكي تكون عندي فرصة أفضل لأراها في المستشفى سأبدأ بزيارتها في القبر، وهذه الورود سأقسمها قسمين: قسم للقبر وآخر للمستشفى وسأكتب لها ورقة أحشو بها الباقة وأكتم الصوت:

أمي: إنكِ لم تجعليني أتألم فقط، وإنما أنتظر كذلك. وهو ما لا يمكن غفرانه.

في الحقيقة كانت هذه هي جملة أمي لأبي في رسالة ما. أنا أقتبسها منها فقط.

لكن مايضايقني الآن هو أنها جملة رخوة. تضايقني الجمل التي لا صدى لها، تلك الجمل التي لا تقال عندما تقال. هذه الجمل مكانها القبور والمستشفيات وبالتحديد غرف العناية المركزة. إنها تحتاج الأكسجين أيضا لتُواصِل البقاءَ.

موت سريري يعني، أو حياة سريرية.. كما يحلو لكم!

أروع عقاب لمثل هذه الجمل هي أن تقف بالأبواب، وترى الأجساد وهي تنتفض من نقص الرحمة. فترى لا معنى وجودها أمام أعينها.

والآن تعود الآلام.. كل العظام ونوبات الهلع والرعشات وضربات القلب الساقطة..إنه هو، أعرفه عندما ينسحب من دمي.أهو ألم الانتظار أو انتظار الألم؟

آه هذا الترامادول الحقير الذي يستعبدني، وليس معي ما يكفي من الخيال لأحررني منه. ما العمل؟ أين أجد السكينة؟

أين تباع أيها الخيال؟ من يستعبدك أنتَ أيضًا؟ أين هي ينابيعُك؟ أين؟

*** * ***

(عن الزلزالِ)

زلزالٌ زلزلَ البيتَ. زلزلَ كلَّ محتوياته. كل ما علا سقط، وكل ما كان أرضًا مالَ، وكل ما لم يكن لم يُصَبْ. فوضى متداخلة الألياف والأنسجة والخلايا. كَرَاسي بركتْ فوق كتب، وكتب غرقت ببقايا قهوة وشاي وماء منسي في صينية من ليلة مضت. انكفأت الثلاجة بما تحمل، وفاضت بما تحوي. تعلقت شاشة التلفزيون بخيوطها السميكة والتي لم تنجدها من سقوط مروّع دشدشها، وظلت مشدودة ومدشدشة، زجاجها تسرطن، وغامت كل الوجوه في الهزَّة.

في وسط الفوضى ينقذك دومًا ضحكك. بر أمان لايُستهان به. تُمسِك بالكتاب وتسأله عن رأيه في طعم القهوة، وتضع قدمك على البيض المكسور سائحًا في أرض المطبخ، تقول لنفسك، البيض النييء مفيدٌ للبشرة. البيض النييء "كِريم تنعيم" لا بأس به. أو أرجوحة: البيض النيئ المكسور بساط ريح: انظروا إليَّ وأنا أنزلق.. هههههههه..

زلزال مر عليك بعد إقامة سبع سنوات أو ربما ثماني سنوات، في هذا البيت. كل الأشياء تحدث بعد السابعة أو الثامنة ربما، هذا هو عمر الزلازل. عمر الزلزال الأول على الأقل.

زلزال عليك أن تعيد ترتيب كل ما تركه خلفه.ستعيد ترتيب كل ما تقدر عليه، لكن سينقصك دومًا ذلك اليقين بأن هذا الكرسي مثلا هذا الكرسي الذي تمسك به بين يديك ما زال صالحًا للمكان الذي كان فيه. للمكان الذي كنت قد اخترته له.

زلزلة ذلك اليقين، ستبقى هي المسؤولة عن تسمُّرك هذا، حاملًا الكرسي، لا أنت تاركه ولا أنت واضعه.

مرحلة التسمُّر هذه قد تطول.

فتجد نفسك وقد تجمدتَّ بخوف المنحدر، فلا أنت تقفز، ولا أنت تسقط، ولا تفارق الحلم. وقد يتطور الموقف فتصير جزءًا من صخر المنحدر، وذباب الرغبة.

شكرًا يا سعاد، تعرفين كيف تكتبين موتك..

شكرًا جدًّا.

* * *

(عن الوسيط)

"أن تخرج الدموعُ من الحُلمِ إلى الواقعِ. أن تفاجئك الوسادةُ التي تحمل رأسَك بأنها تعرفك. تمسك يديك، تفرد أصابعك وتأخذها إلى الدموع، وتقول لك، نعم هنا كان عالمٌ، ها هو..

الأخيلةَ الأخيلةَ: احترسْ لها".

جميلٌ أن يحلم الإنسانُ يا سوسو! جميل حقًا، أما أنا فمنذ سنتين أو أكثر لم أرَ حلمًا واحدًا، وكلامك عن أنني أُكلِّم نفسي، وأضرب بقدميَّ وأنا نائم، دليل أكبر على أنني لم أكن أحلم.....

تعرفين ربما لأنني أستنفد كل الخيال في اليقظة، فلا يبقى للأحلام عمل، فلا تأتي..

وربما لأنني اتفقت معها على أننا أصدقاء، ولاداعي لأن يربك أحدُنا الآخرَ، أو كما تقولين:

"لنكنْ كالطيور والشِبَاك: ليبتعدَ كلٌّ منّا عن الآخر والسلام".

الأحلام! إنها لاتكف عن إرسال إشارات لا أستقبلها الآن.

(عن الصورةِ الاستعاريةِ)

كان قد شرح لها كيف يرى زواجَهما. قال لها إنه كانتْ له يدان، كُسرتا كسرًا لا يقبل جبرًا. المفاصلُ دُقَّت، هُشِّمت تمامًا. قال إن عليه أن يقطعها من المفصلين؛ ليركِّب أجزاءَ تعويضيةً، وأكدّ أنها ستعملُ أفضلَ، بل أكّد ثقته المطلقة في العلم.

وأبي دارس هندسة، لذا تجده مؤمنًا جدًا بالطب. على يقين دائمٍ، أن مشكلتي مثلًا مع المخدرات لن يحلها إلا العلم، والطب ذراعه طويلة.

وتضحك سعاد وتقول مدد. يعود أبي ليكمل. البتر هو علاج هذه الحالة.

صحيح أنه لا يحب إيلامها ببقائه معوّقا، كما قال هو وكتبت هي، وسمعتُ أنا، وقال إنّ رحيله آتٍ لا محالةَ لصالحِ مستقبل هذه العائلة، وعليها أن تقبله. قال إن حياتهما اكتملت، وأن عليهما فض هذا الاكتمال.و"نفُضَّها" سيرة.

(ر ح ي ل) / (م س ت ق ب ل). غريب أن سعاد لا تفهم ولا تقبل هذه العلاقة

بين الرحيل والمستقبل!

قال إنهما صارا متشابهين جدًا، وهذا التشابه صار يقتل كل فرص "الاختلاف" في النجاة. مستحيل البقاء مع امرأة تستلبه! (هاهاها أبي يتحدث بالاستعارات)!

وقالت هي إن حياتهما تنزف، ويمكن البحث عن مصدر النزف وسده. سدُّ النزف أبسط ما يكون، شوية بُن تقوم بالواجب. وضحك هو من تبسيطها الأمور، وضحكت هي لسبب لا تعرفه، وضحكتُ أنا من الاستعارات التي تخيلاها مجدافًا وعصا تزحلقت، فتسببت في "الهُدر" المحترم الذي سبب ارتجاجًا أفقدهما البصر لوهلة.ثم تبادلنا أسباب الضحك.

يتحدث هو عن بتر، وهي عن كتم النزف، هما اللذان لم يدرسا طبًا أبدًا، يجرؤان على الإمساك بالمشرط ويرتديان القفازات البلاستيكية البيضاء، ويدخلان غرفة العمليات، فينسيان أيديهما هناك!.

كلاهما كان يحمل عالمًا في يده، في ذلك الزمن. وأنا بينهما، قامة قصيرة في جنة المنتصف.

جنة المنتصف؟ طيب حان وقت تدخُّلي إذن يا سوسو.

"كنت وقتها أمسك بيدي كل منهما وأحاول إيصالها بالأخرى. أمي تشد يدها، وهو يقول بس، دا مش شغلك. ويتابعان الصراخ، وبالطبع لم أكن أتعب من تكرار سؤال عرفت دومًا إجابته:

ماما، بابا، فيه إيه؟

جوابهما معًا كان لا شيء.

هذا ال "لا شيء". آه، هذا اللا شيء، أعرفه جيدًا، كأصابعِ يدي.

وهذا "اللا شيء" ظَلَّ كما هو لم يتغير أبدًا، وكلَّما ضاقتْ الدنيا أو أظلمتْ، أقول لنفسي، إنه اللا شيء يعود من جديد.

حسنا، لا تجزع يا نادر، يا نينو، يا أنا، إنه اللا شيء، لا شيء، إنه اللا شيء. فتماسك. هل تعلمون أننا أنا وهذا اللا شيء، ماختلفناش ولا مرة.

طفل يسير في غابة، تلمح قدماه طائرًا سقط أرضًا، يقترب،يمسك به، ويبدأ في نتف ريشِه ريشةً ريشةً، وهو حي. يرى الجسد ينتفض مع كل نتفة، اللحم الأحمر ينكشف أمامه، فيكفيه. يلقي به أرضًا، ويتابع سيره. يلتفت خلفه، لا حراك في تلك النقطة الحمراء. أنا واللا شيء.

كانت مصر قد أنهت عامًا واحدًا من فترة حكم الإخوان، أو يزيد. وكانت تحتفل بالسنوية أو احتفالات أخرى على ما يُعتقد. أنا لا أركز. لا تعتمدوا على تواريخي!

وربما قد مرّ على موت أمي أربعون يومًا بالتمام والكمال، وكانت نهاية علاقتها بأبي قد مرّ عليها مالا تهمنا معرفته مطلقًا. فقط كان قد اختار يوم عيد ميلاده ليلقي بخاتم زواجها في وجهها ويرحل. أظنه رحل مع طنط مريم. لا بد أن أسأله! وأسألها ماذا فعلت بأونكل عصام.

يوم عيد ميلاد أبي يحمل لي الكثيرُ من المسرات. ففيه عرفت أول ما عرفت من الأصدقاء الجدد: الخمر، الباركينول، ثم عرفت الترامادول.. وكل ماينتهي ب"وول"، والوول في الإنجليزية تعني حائطًا.. هههههه..

وفي يوم عيد ميلاده اختارتْ أمي رحيلَها، في هذا اليوم قادت أمي حتفها بنفسها. كم عيد ميلاد منه ينتظرني؟ كم لا شيء قادمٌ؟ لم أعد أعبأ.

وكما كتبت أمي على شاهد قبرها الذي يقبع في المكتب بجواري:

" اللامبالاة آخر فصول الألم".

نعم نعم، هذا هو شاهد القبر الثاني الذي يخصها.أتتذكرون الأول عن تخلي سعاد عن مناصبها..

لا تكتفي سعاد بشاهد واحد. تقول إن لها حقًا في ثلاثة. تقول إن الرقم ثلاثة رقم مبروك.

لا، ألم أقل لكم ذلك من قبل؟

إذن اقرؤوا التالي ونُكمِل فيما بعدُ...

*** * ***

(عن القلق)

إنه أربعون أمي التي كانت تكبرني بثلاثين عامًا. أجلس في أربعينها،بينما هي في قبرها،أنا هنا بين "أرباع" المقرئ المعلّب في أقراص مدمجة.

قرآن الأربعين كمعزينه أكثر برودة من قرآن العزاء الأول. كل شيء باهت.

أأسرُّكِ سرًّا يا سعاد،إن أصدقاءَك وصديقاتِك يُضحكونني وهم يحتسون القهوة دونك أو ربما بديلًا عنك. قهوة أربعينك الماسخة.

أربعون يومًا عمرُ موتك. أربعون يومًا منذ انسحبتِ بجبن وبلا اعتذار.. هكذا:

"تعلن سعاد فهمي تخليها عن منصب الأم والزوجة والأستاذة والصديقة والمواطنة والغبية المغفلة"...

تتخلى سعاد إذن، لن تكمل تلك الرحلة.

جملةٌ في ورقة، جبانةٌ مثلك ترتعش على مكتبك،وصيتُك وشاهدُ قبركِ.

أتحتاج القبور إلى شهود وشواهد؟

أمسك الشاهد الرخام بيدي، و اتجه نحو الجَمع، مجتمع الصالة أو البهو الكبير، تحت. أمر بين شاربي القهوة أعرضه عليهم، كشبْكة عروس، أو كجرح قبيح امتلأ بقيحه، اللوحة الرخامية تخيفهم كما أخافهم جسدك المهروس المعجون بحديد الفولكس فاجن الحمراء الألمانية، هدية أحمد..

أمر بالرخامة، وأدعوهم واحدًا واحدًا أن يلمسوا نعومتها، أؤكد لهم أنها لا تؤذي.. لكنهم جبناء، كلهم.. لاأحد يجرؤ على لمسها، كأنها جسدك بدمه المجلَّط، هو ما أعرضه كأنها جسدك.. ولم يستطعْ أحدٌ أن يلمَسك!

لماذا نخاف من لمس الموتى؟

لم تكن فناجين القهوة بهذا العدد من قبل في بيتك يا سعاد.

دومًا كنت تفضلين العدد ثلاثة. الموتُ يجدد العاداتِ، ويمنحُها دمًا جديدًا. الموت يكرُّر دمَ الروتين اليومي وينقِّيه. الموتُ له صلاحياتٌ أكتشفها بكِ يا سعاد.

أيقلقكِ هذا الوضع، أولستِ تعشقين هذا:

"على قلق كأن الريح تحتي".. ألا تملئين بها البيت كله.

حياتك كلها افتراضية: هذه الكلمات، وهذه الابتسامة وهؤلاء الأصدقاء، وهذا العاشق، وهذا الزوج، وهذا الطفل الرجل/ الرجل الطفل. كلها حيوات ورقية:

و ر ق ي ة

.... هل انتهيتم من القراءة، أتتذكرون ما كنا نتحدث عنه؟

كنا نقول: هل يمكن لقبر أن يحتمل ويقبل أكثر من شاهد؟ نعم نعم.. القبور لها صدر واسع!

أتركُ تلك البقع قانيةَ الحمرة، اللزجة ما زالت، وأبحث عن مصدر النزف. ليس لإيقافه، ولكن للاستمتاع بوردة الدم النافرة، راقبوا معي، ألا تستمتعون!

نحن في قلب ماسبيرو الآن!

وتلك الواقفة في الجمجمة، دبابةٌ حديثة الصنع، آخر موديل.

مكتوب عليها: "جيش مصر في خدمة شعب مصر "، وعليها ضابط يُرضِع وليدًا.

شبرا يادُفْعة؟

لأ، أنا خط امبابة يا كابتن. جاي؟

لمَ تتداخل الأزمنة في رأسي هكذا؟ لا أدري. إنه الإدمان، كما تقول سعاد.

لمَ أنا أزمنة في أزمنة في أزمنة.. أيضًا لا أدري. ربما هو اليوتيوب!

سأذهب للبحث عن جدار جدير بكل هذا. جدار يكفي كل هذه الأزمنة!

وبينما كانت أمي تبحث عن مصدر النزف، كان أبي يبحث عن البتر، أي عن إضافة مصدر آخر للنزف. تشخيصان وعلاجان لحالة واحدة.وكنت أنا في مزاج التخلي، أو كما تقول سعاد في "مقام التخلي".

وكنا على أبواب خريف ما.

*** * ***

(عن ال ولاّ)

صعيدي، ولا بحيري، ولّا الهوا / الهوى.. رماك؟

أغنية أمي التي دندنت بها في آخر خروج لها.

هل يعرفُ أحدكم، أين على الخريطة، تقع هذه المنطقة الثالثة التي كانت منها سعاد!

نصصّتْ أمي:

"منين يا عم ابراهيم؟

أنا من الطير"...

*** * ***

(عن النصيحة)

"وإن خفتِ عليه، فألقِيه في اليم".

شكرًا للنصيحة.

كتبت أمي.

* * *

(عن الزيف)

"عندما تصبح الأنا أكثر زيفًا من الأحداث التي في ذهنك". كتبت أمي. وكتبتْ أنها استيقظتْ اليوم فوجدتْ ورقةً بحجم حائط من حوائط غرفة نومها مكتوبًا عليها:

"..... لم أعدْ الآن أعرفني. إني داخل حياة شخص آخر. بحثت عني في كل مكان في الشقة وبالتحديد في هذه الغرفة التي تنامين فيها كل ليلة بجواري في هذا السرير وهذا الفراش،فلم أجدني. بحثت عني بكل ذرة وخلية فيكِ، بعد أن خدّرتك كي لا تشعري بعبثي فيك وأنا أبحث عني. لم أجدني. عارٌ عليكِ، أين أخفيتني؟ لا بل أين ضيعتني؟ وللحق فقد بحث معي ذلك الذي كنته من قبل، ثم رحل مؤكدًا لي أنه لا فائدةَ مطلقًا من البحث. لقد غادرني بكل قسوة.. أقسم لكِ: بكل قسوة. أرأيتِ كم أصبحت الناس وحوشًا لا ترحمْ! أرأيت! لا تنتظريني، فأنا لست هنا فقط، وإنما خارج عقلي أيضًا. مضطر أن أنزل بسرعة ربما استطعت أن ألحق به / بي.. لا أدري ربما بنا، فإن فرّ مني سأتبعه عبر كل غابات الغباء والتخلي والترهل الروحي وأشعر أنني سأقبض عليه؛ لا لكي أكونه أو أدخل جلده من جديد. ولا لكي أستسلم له مرة أخرى.. ولكن لكي ندردش قليلًا: قليلٌ من الثرثرة مع الراحلين قد يجدي. وقد أركله برجلي وأتركه أنا بكامل إرادتي، ولن تأخذني به نظرة رحمة، بل قد لا ألتفت إليه حتى. وسأتخطاه. لكنني أيضًا لن أعود هنا، من جديد. أرجو أن ترعي تلك الذكريات المزروعة في كل مكان. الصبار لا يموت بسرعة عزيزتي. إنه محارب قديم كما تعرفين".

كيف كتب أبي هذه الكلمات بحجم حائط من حوائط الغرفة؟ ولمَ؟ وكيف استطاع أن يهدمَ حائطًا موجودًا ويعري أمي هكذا؟ وما قيمة أن تكتب شيئًا بعد أنْ رحلتَ؟ أتريد للكلمات أن تبررَ فعلتَك وتعتذر عنك؟ الكلماتُ لا تحب هذا الدورَ أبدًا.. الكلماتُ لا تفعل هذا أيها الأحمق. لا تبررْ ولا تعتذرْ.. ليس دورها، الكلمات تعرِّي.. أحيانًا.

من استأجر أبي، ليفعل بأمي هذا؟ أهو ألمٌ آخرُ تريد زرعَه؛ ليروي الآلام التي تركتها ترعى في دم أمي. أتريد أن تبقى هنا وهناك في آن؟ أؤكد لك لن تبقى لا هنا ولا هناك. أكنت موجودًا أصلًا! اسمعني إذن جيدًا: سأساعدها على مواصلة القتال ضدك.. بكل تأكيد. ومرة أخرى: لقد كنتَ مجرد مساحة..

أنت فراغٌ يمشي على قدمين.. بكل من أدخلتهم حياتَك وحياتَنا.. كتل من فراغ..

كتلةٌ تملأُ فراغًا ما. أتتذكر تحياتِك المسائيةَ الباردةَ عند عودتك دون أن تكلف نفسك عَناء الاقتراب أو حتى النظر. تلك التحيات الباردة هي رجل غامض مَرّ، توقف رفع قبعته؛ لأمر أكثرَ غموضًا، انحنى انحناءةَ من يمر سريعًا، ويتوارى تاركًا حفرًا كبلدوزر لا يعرف طبيعة المهمة

الموكلة إليه، فاستسهل الحَفْر لسبب ما، أو تسوية النتوءات أحيانًا، ورحل تاركًا الضوضاء والدهشة والقبح.. والغبار الذي يُضبِّب كل شيء.

نعم يا أبي: أنت شخصٌ مدهش حقًا.. ممن لا نلتقي بهم كثيرًا في الحياة.

المرءُ لا يلتقي أبًا إلا مرةً واحدةً.

أبٌ يمر ويتوارى كأنما يريد اختصارَ المسافة التي يحتلُها جسده. وتلك التحيات الباردة كجراحات القلب المفتوح القاتلة الآثمة مع سبق الإصرار والترصد.

تَقبلُ أن تَشُقَ صدرَك وتكسِّرَ عظامَ قفصِك الصدري على أمل زرع قلبٍ جديدٍ صحيح وسليمٍ. تسمع صوتَ ضلوعك وهي تُكسَّر، ومع أنك تعرف أنها كذبة، لكنك تجريها. تحياتك البارِدة عوّلنا عليها كثيرًا، قلنا ستُنضجها حرارة التكرار،أو قد تغيرها فصول السنة، أو أن معجزة قد تحدث وتشعر بأننا عائلةٌ ولسنا موبيليا.. قلنا. لكنك وككل العاهرات كنت تستخدم كل ما في وسعك من كلمات الحب والحنان لتبيعنا نوعًا آخر من العُهر. يبدأ دومًا بوضع يدك في جيبك، ولا ينتهي.....

اتركني فبي رغبة في أخذ جرعةٍ من عُهرك المعلَّب.

هنا قد وضعتها في دولابي، بين ملابسي، لاتحتاجُ لثلاجة، هي مجففة بالقدر الكافي الذي يحفظها. التجفيف يحفظ أي شيء.

جفِّف تنجُ.

سأبتلع وأشم وأعود لك. انتظرني. جاء دورك الآن في الانتظار. سأحشوني وأعود لأبصق عليك!

أتذكر، ذلك المجذوب في الشارع، الذي اختارك في إشارة قصر العيني، من بين مئات، وأتى وبصق عليك، ولم يتوقف عن البصق المتكرر، حتى فتحتْ الإشارة، وانزلقتْ سيارتُك على لعابه، واختفت. لقد كنتُه، وأنت لم تكن تعلم..

هههههه والله كان أنا..

ولعابي الذي أغرق وجهك، خذْ، قارنْ، أليسَ نفسَ الطعمِ؟

*** * ***

(عن المنتصف)

حدّثتْ نفسَها وهي في بحر الشارع الضاج بسياراتٍ طائشة خرجت لتوها من ليلة فسق ومجون. غارقة في سكرها وغيها، تستعرض ببذخ ولا توازنها.

تكاد تقرأ فيها رغبةً تعطَّشت للدم ولم ترتوِ بعد، رغبة تريد أن تثأر. خارجة من صيام طويل وجفاف حلق. وصدأ. سياراتٌ تلاعبك بكل الأحجام، وبكل تواريخ الإغواء. حتى أنها تغني لك: تيجي تصيده يصيدك، فتكتب لها بحكمة مضحكة ككل الحكم الوقورة: لطالما خَبِرْتُ موارد التهلكة يا صغيرتي.

ويبقى الشارع بينكما بحرًا هائجًا بإغوائكما. الإغواء مُعْدٍ كما تعلمون.

حدّثت نفسها بأن الرصيف الآمن هو الرصيف الثالث. ذلك الذي يشطرُ الشارع شطرًا. يولجه ويقتحمه ويشرب ماءه عيانًا بيانًا. كل صور الماء.

حدّثتْ نفسَها، واتجهتْ نحوه وتوسّطتْ ذلك السُعار: الضدين، برصيفيه المحتلين بكل صور الصغار:

موتوسيكلات، تكاتك، باعة جائلون، أطفال شوارع، وما يجل عن الوصف، ولا يدرك كله.

كل الأرصفة في هذا البلد محتلة وقذرة. هدأت نفسها وانتقمت لها. تصلح بعض الجمل للانتقام.

في الرصيفِ الشاطرِ الشارعَ، ادَّعتْ أنها في أمان. وعادة ما كان يضايقها هذا..

فراحت تواجهه بظهرها، ويواجهها بظهره، يتظاهران. يفهمان بعضهما البعض أفضل الآن.

لغة الظهر والتظاهر لغة حية. لا تقول لنا تواريخ اللغات شيئًا، لكننا نعوّل على تواريخ الثورات.

نادر على حق. هذا الولد يفهم، صار يفهم، كبر كثيرًا. هذا الولد، كبر وعجِز.

أهذه شوارع هذه؟ بل لا تكون الشوارع إلا هكذا!

فوضى وقلق وضياع،وأرصفة لا تعير عابريها أي انتباه...

تجري سعاد يوميًا، لكنها وهي تجري لا ترى. شيْء ما في السرعة يعوق الرؤية. لا لا، ليس الهواء الذي يضرب العين؛ فالعين ليست وحدها عضو الرؤية في هذا الكون الصغير.

هي لا ترى جيدًا، لأننا في الجري لا نرى جيدًا. الجري هو زمن الهروب من الرؤية.

وتسبُّ سعادُ الرصيفَ الثالثَ، وتعود.

وما زال السؤال يرن: أيكون الاتجاهان ضدين؟ وإن كانت الإجابة لا، فلمَ يظن كل من هب ودب أن كلمة اتجاهين هما هكذا. وتضحك تحت ماء الدش وهي تقول لنفسها، لأنه "كل من هب ودب".. ليس إلا يا سوسو.

وأنا من موقعي هذا كقارئ أقول لكِ هذه بوادر انفصام يا سوسو، وهو مرض عقلي فيه يتحدث الإنسان حديثًا غير مفهومٍ، مع كائن خارجه يسميه: نفسَه..

ويتحدث عنه أيضًا كما فعلتِ الآن ويظن أنها تفهمه فيبقى يحادثها معتقدًا أنها تفهمه حقَّ الفهم، وتؤنس وحدته بل وتحميه..

والأكثر خطورة أنها الوحيدة التي تفهمه، بينما هي تضحك منه ككل سجن.

تضحك وتقول: اتركيه لغيِّه، قد تعددت صوره وهو أمر صحِّي.

تعبت من الوحدة.، تقول لنفسها.

تحت ماء الدش، يجري هذا المشهد، تحت ماء الدش، حيث الصفاء والتفاهم والانسجام، حيث تنظر سعاد فجأةً لكل هؤلاء الذين تحادثهم ويحادثونها، تنظر بعين مفزوعة، رعبٌ يدفعها لترك المشهد عاريةً دون وضع مايُخفي عورتها، هاربةً من كل هذه الأنَوَات التي تدَّعي فهمها، تدفعها دفعًا بعيدًا عنها، وتغلق باب الحمام عليها آملة أن تختنق ببخار يملأ المكان. تغلقُ البابَ خلفها، وتجري في البيت عاريةً، تتلفتُ خلفها، لا ترى وترى، أهذا هو التفاهم؟

يا لرعب التفاهم!

عندما نحدِّث أنفسَنا أحاديثَ نفهمها وحدَنا.. نحن مرضى.

عندما نحادث أنفسنا عن قرب وبعد معًا.. أحاديث لا نفهمها.. نحن مرضى.

ما العمل؟

لا عمل!

التهمْ نفسَك في سكينة التفاهم ورعبه.. وإلا سيلتهمك آخرون..

*** * ***

(عن التفاصيل)

يقول لي في زمان لا أذكر منه سوى هذه المحادثة:

أبي: نعم، كلما زادت حلاوتها، زاد هروبي منها. لاأحتمل الاكتمالات.

أبي: أجدني أطلب المرارة والنقصان.. نحن سجناء أجسادنا في النهاية.

أبي: لمّا ألاقيها احلوت أمشي.. هاهاها.. وفي النهاية دي مجرد إجازات من التعب. العلاقات بالمرأة، للراحة. ليست لطلب المتعة ولا اللذة.. إنما الراحة. وكيف تحتاج الراحة إن لم تتركها وتذهب للتعب. المرأة مخلوقة لراحتنا.

وكنت أرى كل من عرفهن جميلات بنكهة حزن.. إنه صعب. الفهم أمر صعب. قد يحدث أن نبني فهمًا كعمارة مغشوشة.

هذه كانت طريقة أبي في البناء: عمارات وعلاقات، وإلا فمن أين ثروته.. وهذا الحساب البنكي؟ لذا فلم يطل به المقام في اله ندسة وشؤونها، وحوَّل إلى تجارة السيارات الألمانية. ما العلاقة؟ وكيف وجد هذه التحويلة؟ لا بد أن نسأل عامل التحويلة، النائم أعلى برج المراقبة، والذي يستطيع أن يشمَّ رائحة القطار، ويصل به لبر الأمان. للأنف دور كبير في النجاح. أبي يعطي أهمية كبيرة للأنف.

لا أركز الآن. لكني لا أريد الحذف. هل قلت هذا؟ لم أشعرُ أنني أقعُ في فخ سعاد؟

المهم، كلها عمارات مغشوشة. كيف يبني الإنسان علاقات كلها مغشوشة؟

أظنها سعاد وقد قررت الانتقام من أحمد بعد أن أعلن لها قراره النهائي.

البتر يكسب.

وفي زمان المكتب، كتبت أمي:

"أتحدث عن كلمة تنعجن في حرف متحد بحرف:خطأ لغوي سخيف.. كيف تأتي هذه اللام ألف وسط انفصال وقطيعة، كأنما تريد أن تنفي المعنى بشكلها. كلمة تُبقي جزأيها: الأول والأخير مجرد تجويفين لا خلاص لهما منهما. انظروا معي، تعلموا أن تقرؤوا الجسد، إنما خلق الجسد ليُقرَأ:

"طلاق..".

تردم التجاويف: الطاء والقاف، ويعلو شأن اللام ألف،ويتجلّى.

اللام ألف.

"اللامُ بالألف المعطوفِ مؤتلِفٌ كلاهما واحدٌ في السبْقِ معناه..

وفي التفرُّقِ اثنانِ إذا اجتمعا بالافتراق هما: عبدٌ ومولاه".

*** * ***

(عن التنانين)

حضرة عائلية لطيفة في ليلة ربيعية قاهرية. الربيع العائلي.. هاهاها..

أبي وأمي وأنا، والبيت المسكون بنا، وبأنفاسنا، وبآخرين: هم نحن. هو يتكلم وهي تسمع وأنا حاضر موجود. هو لا يتكلم وهي لا تسمع وأنا غير حاضر ولا موجود. والبيت مسكون كله، بنا: (بِ نَ ا). بيت لا يمل من التكرار، مدهش في تكراره. تكرار يأكل نفسه. بيتنا فريد مدهش في إبداعه.

هنا تصف سعاد التنانين التي كانت تمنع عنها النوم.

أقرأ. وأصعد فوق الكرسي،أنا والجدار وجهًا لوجه. أرش البطانة البيضاء التي تجف بسرعة. أمسك الفرشاة، أرسم تنينًا بسبع رؤوس متعوِّجة، له ساقان أماميتان وخلفيتان. ينفث نارًا، ويصدر من فمه أدخنة سامة. بأنياب خنازير مدببة ومسننة كأسنان القروش. جسمه مغطى بالحراشف والريش. عيونه كبيرة لتراقب الكنز بعناية. عيون تومض بحراشف تعكس الضوء. حراشف مضيئة.

هل مات التنين بسبب كبر سنه، الحوادث، الأوبئة أم الإنسان؟ ولمَ يطعنه القديس مارجرجس بالحربة؟ وهل سيقوم من رماده، ويصير أزرق الناب والجسد؟

وأكتب على الجدار ذاته:

إلى كَم آخذُ الحَيّاتِ صحبي.. إلى كَم أَجعلُ التنّينَ جاري.

لكنه هذا التنين لا يشبه تنانين سعاد التي كانت تومض لها في الحلم.

وتنجذب لها ويطيران معًا، ثم تومض حراشفها ومضةً واحدة، وينقضون عليها.

تلك التنانين سأُفرغ لها حائطًا آخر ولن يكفيها. ستزحف على بقية الحيطان وتأكل تنيني الصغير الملون.. تنانين سعاد مجنحة، تختبىء في كهوفها القديمة.

تكتب سعاد وأرسم أنا. تنانين سعاد التي تراقصها ثم تأكلها في نهاية السهرة، أنيابها مليئة بالسم ولاألوان لها. ربما تكون سعاد هي التي امتصت ألوانها، ثم شكتْ لي.

عاشت التنانين نفس عمر القاهرة أو أقل قليلًا. ولا نعرف إن كانت ستقوم كالعنقاء، وككل ما يُحرق؟ لكنني قررت على سبيل الاحتياط أن أشرب معها نخب عودتها سالمة نخب أسنانها المنشارية، وذلك اللهب المندفع من فوهة فمها. نخب سيقانها التي تبدأ من العدم، لتصل إلى

الأربعة أو تزيد. وأجنحتها اللزجة الرمادية التي تضرب بها وجه العدم.

ولكن لمَ تأكلين الأجنَّة كقرابين بشرية، أيتها التنانين؟

لمَ؟

(عن العنعنات)

عندما أترك البلد وأذهب لبلد آخر،أعيش على هذا.. وماهذا يا سعاد؟ لا تجيب سعاد. لأن كل أجهزة جسدي لا تعمل، عندما تعي أنها بعيدة عنه.

وما هو هذا ال" عنه"؟ من هو؟ ترفض الإجابة، وتنظر للنافذة غير عابئة بمقاطعتي لها، ناظرة نظرة جانبية مدافعة عن حكاياتها.

المعدة لا تهضم، الكبد لا يُنقّي، والعين لا تغسل نفسَها بالدموع، تبقى جافة مُحرِقة.

طيب، وعندما تعودين يا سعاد؟

هو هو نفس الأمر، ما الذي يتغير في ظنك؟ أيتغير شيء؟

الأعشاب الصينية، خفيفة لا تحتاج لشيء، لا يذوبها سوى الماء. ولا تحتاج هضمًا.

أما الآن فكل شيء يمرضني. إنني مريضة بكل شيء. بكَ به بي بالحديقة وسيارتي والطريق للعمل وطلابي وزملاء العمل، والشوارع والتلوث. إنني أشرب كل هذا التوتر والقلق والنفاق والجنون يوميًّا. قل لي: ألا يكفيني أنت لأمرض!

يا سعاد.. كنت تقولين لديَّ ما يحميني من الجنون والانتحار!

الرومي، والعطار، وابن عربي، والحلاج، والبسطامي، والسهروردي، وابن مريم، ومحمد. ماأخفّ ظلك بل ما أخف كذبك!

"لا، لستُ كاذبة، إنني فقط أخفي ما أريد قولَه بقولِه...".

ثم قل لي: هل المخدرات التي احتميت بها حمتك؟

لا شيء يحمي من أي شيء! أتعرفين يا سعاد، الخطأ هو في كلمة "حماية" هذه. أنا لم أطلب من المخدرات حماية! إنها تمنعني من التفكير والبحث عن الحمايات!

وهذه أليست حماية؟

قطعًا لا. إنها تشبه أرجوحة أبي. يشرب ويقابل الناس، ويتحدث ويتحدث، ويعقد الصفقات. ثم يختفي كل ذلك. ويعود إلى تلك الغرفة المعزولة التي يُغلقها دومًا. يعود لهذا الطبق "الغربال السلك" الذي يصعده و يبدأ القفز، يدفع بقدميه "السلك المطاط" لأسفل، فيدفعه السلك لأعلى. وفي الأعالي، يقفز ويرتفع معتمدًا على الهواء؛ ليسقط من جديد وهكذا. يسمي هذا هواية: الأرجحة

هواية ليست حماية.

بل هي حمايته. اللعب وسيلة أبيك لحماية نفسه. اللعب بكل شيء، بالمال، بالنساء، بالكلمات، بالوقت، أبوك يعشق اللعب بالوقت. كما تلعب بخمس برتقالات، بأصابع ماهرة، ولا تُسقط شيئًا. فقط الوقت!

وأنتِ بم تلعبين يا سوسو؟

أتفهم لمَ أعلق كل هذه الساعات يا نادر؟ أريدك أنتَ أن تفهمَ. على الأقل أنتَ!

لكي تستمر يومًا واحدًا في هذا العالم عليك أن ترى ما تخسر!

لا، يا سوسو! لكي تستمر في هذا العالم عليك أن تنسي ما تخسر!

وتكتب سعاد الكثير عن الجرافيتي وعن الأرجوحة وعن الرومي وعن المخدرات، عن كل هذه الأعاجيب والألاعيب.

سأحذف كل هذا يا سوسو.

كفى عنعنات.

*** * ***

(عن الهلوسة والتحكم)

دخلتُ وجلستُ بجوارهما، علب مرصوصة في الثلاجة.

كنت قد انتهيت من كتابة مشهد قتل الواد البودرجي، ورميه من العربية، وكتبته على الفيس ونهيت القصة، بإن الحكومة لقت الجثة، والطب الشرعي قال....

قال الطب الشرعي قال!

قال التقرير، إنه مات (أي قُتِل) بفعل نزيف حاد زي ما كنت عايز يحصل بالظبط. وجاتني الأسئلة "إنبوكسات": بجد ده حصل، وليه ما نزلتش، وكنت خايف من إيه، وضميرك مستريح، وربنا هينتقم منكم ياشوية مدمنين يا مجرمين.

رديت على قد ما قدرت، وأنا أصلًا واخد ومتخدر، ومش عارف باكتب إيه، لغاية ما شفت واحد بيقولي، إنت هتودينا كلنا في داهية، إنت بتتكلم في قضية تعاطي وقتل أبوس إيديك اخرج من الفيس حالًا بأقولك. ودلوقتي وأنا وسطيهم (أحمد وسعاد) دماغي بتودي وبتجيب.

كنت قاعد بافتكر أنا ضارب إيه دلوقتي، وضحكت لما لاقتني فاكر.

قلت آه صحيح أنا مبيّيس. لكن واعي.. يا ولاد الكلب.. ما تخافوش مش هااسيَّح لكو.

سعاد كانت مغمومة ومش عايزة تبص لي خالص. بس أنا كنت متكلين (حاطط كولونيا) ومدَّشْدِش (واخد دش) وعلى سنجة عشرة، كأني رايح أقابل المُزة. آخر روقان يعني.

قلت لسعاد:

على فكرة أنا لسه زعلان منك. وما سبتلهاش لها فرصة تسأل، قمتْ قفلتْ نُص الشباك اللي وراها، كان جاي منه نور بيضايقني، وأنا راجع من قفله، كملت لها: إنتي ازّاي ماتشتريش لي كاميرا أصور بيها ربنا. إنتي فعلًا ست بخيلة جدًا.. هههههه..

لقيتها بترد وبتبتسم: لأ ماأنا قلت أسيبك الأول تِقسم العالم نصين، وبعدين تبقى تصور ربنا. في الروَقان يعني..!

وبرضو مش عايزة تبص لي. الحكاية دي بتجنني.. أنا عادي ماابصش للناس لكن هم مايبصوليش، وبالذات سعاد، دي حكاية ماباستحملهاش.

قلت لنفسي بلاش ياابني تفوق عشان كلام فارغ مش جايب همه.مش عايز اتخنق والنبي يا سوسو. أنا دافع في الدماغ دي. وعالي ومش ناقصة فوَقان.

وكانا يتحدثان معًا (سوسو وجوزها)، وأنا أحادثهما أيضًا وحدي.

أيوه، نعم أنا الوحيد في أصحابي الذي يعرف كيف يتعامل مع الكمية. مهما كان عندي. أصلي التحكم ده مش حاجة سهلة، دي رياسة وهندسة.. التحكم في اللي في جيبك ده قصة، زي التحكم في الأوركسترا. وزي التحكم في الناس كده.. عايز صبر وإنك تتودِّك.. مهما يكون معايا باتحكم في الكمية اللي اضربها. بقية أصحابي مش كده. حتى شايفينهم ازّاي بيريِّلوا حوالينا، والغريب إنهم مصدقين إنهم ماخدوش كل اللي كان معاهم.

كله صمت دلوقتي. شايف ومش شايف، لساني تقيل شوية.. مش مهم. هي لعبة بس إنت اللي بتعلمها لنفسك، زي واحد بيرسم الخريطة من التوهان اللي تاهه. حاجة كده.. المهم. و لقيت سعاد بتقولي، في الأول بس، بتبتدي متحكم، وبعدين مابتتحكمش ياحبيب ماما..

على فكرة إنتو عارفين إن البيسا والبودرة بتفتح الشهية للحشيش، طب إنتو عارفين إن الحشيش بيخليك تفُك شوية، خصوصًا لو كنت ضارب كيماوي. تفك من إيه؟ من الخنقة يابقر خنقتوني: إنتِ وهو. وازاي قدرت أبطل بودرة يا سعاد؟ بالكيماوي ياختي. وكمان التراما (دول) بتشد الضهر يا سوسو. لما بتوقّف بودرة بتبقى مشكلتك وجع الضهر، والمناخير السايبة. مش بيقولك اسأل مجرب.. هههه..

سيبكو من اللي بتقولوه ده، وتعالوا احكي لكم حدوته حلوة هتموتكم من الضحك.

فيه واحد صاحبي صرصر (صراصير يعني باركينول) ودي يعني إيه؟ يعني براشيم هلْوسة، المهم أخد صراصير، وراح واخد مفتاح العربية بتاعتة أمه اللي باعها عشان البودرة، ومشي في شارع الهرم، يفتح في العربيات عربية عربية.. بنفس المفتاح.

ليه؟

عشان ياخدها للعرباوي، وياخد منه بودرة بألف جنيه، تمن العربية، يعني عشرة جرام.. المشكلة إن اللي بيصرصر بيبقى إيقاعه بطيء قوي، شبه الحياة معاكم كده! إنتي وهو، حاجة تتفرج عليها فتضحك.. تحس نفسك بطل فيلم مابيمشيش.. إنت اللي واقف فيه...

يعني الباب يفضل مفتوح، والنور بنفس الدرجة، ممكن يتحرَّك ويخبَّط في الحيطان لكن مابيمشيش، وإيدك تفضل جنبك، مش قادر تاخدها للتانية حتى.

المهم صاحبنا ماعرفش يفتح بمفتاح عربية أمه أي عربية، والمصيبة إنه كان حاطط في جيبه رخص عربيات فتحها قبل كده، وما تفهمش ليه. ابن المضَّايْقَة!

إيقاع بطئ؟ أيوه ماهو ده الساید إفّكت.. وكله مفروض عليك.. يعني الإيقاع البطئ ماحدش عايزه، لكن بتاخده في السكة اللي إنت عارف إنك رايح فيها للدماغ العالية، بِلغِتْكُم إنتو تبقى اسمها النشوة والجو ده يعني....

وفي الأول وفي الآخر إنتَ مابتخترش، كله مفروض عليك. المهم الواد شريف مرمي دلوقتي

في الحبس. أنا قلت للواد اللي كان معاه، شريف عمره ماصرْصرْ،إنت كده سلمته تسليم أهالي، وأنا اللي هبوّظ وش أمك، صدقني. أو تخرّجه منها، أبوك وكيل نيابة ياروح أمك، يعني تتصرف.

وبعدين........ استنوا بس أكمل لكم...

نادر؟ نادر..ناا دددددددرررررررررررر..

لالالالا مش عايز خلوني هنا، معاكم، والله أنا مش نايم، كنا بنقول إيه يا سعاد، آه كاميرا، وسكينة. وانتي حطيتي شروط بنك دولي.. صح.. والثورة جايه أهي في السكة..

صح بس انت بقى بعدها، رميت راسك ياحلو، وقعدت تهلِّوس.. ولافهمنا ولاكلمة، قلت بيسا، واللمونة ب10 و 15 جنيهًا، فوق عند العرباوية، وحاجات كده.

لمونة بالمبلغ ده؟ ومابتهلوسش!

خلاص خلوني هنا،وكملوا كلامكم كأني مش موجود..

هو: أنا طالع أنام يا سعاد. اقنعيه يدخل المصحة. وأنا هاادفع.

هي: إنت مفيش أي مستقبل ليك.. آخرتك حبس!

* * *

(عن الليمون)

كيف تستطيع سعاد أن تحوّل دفة الكلام، في ثانية، من سأم إلى سأم آخر؟

هذه موهبتها.

تؤكد لي فجأة مع حركة من رأسها، وأصابعها الطويلة، لا بد أن الروح تخرج من الفم.

وده هيفرق معاكي يعني بعد ما تخرج.. أضحك وأفتح النافذة، أنظر هناك، وأفكر في قناصة ورصاصة طائشة.. كل هدفها اللهو.

لكن للأسف، لا قنّاصة ولا رصاص يتدلَّع في الهوا.. إحنا في عصر الاستقرار.. حتى الشهدا مستقرين. إحنا في فيلم صامت وسلوموشن ومظبوط على مود ريبيتشن.

كرر يا حلو، وكرر كمان، وكركر وكركر.... ولو إنت كنت قاعد على قهوة مثلًا، استنى موتوسيكل يعدي، يرشك برصاصة هدية، كدهه، ولا أي مشكلة. ببساطة، دخول رصاصة، خروج روح، والصمت من تاني.. ومش عارف نمت قد إيه، لكن صحيت لقيت سعاد قاعدة قدامي لسّه.

وسمعْتني بأقول: حتى الجرافيتي اللي بارسمه بيكرر نفسه... جمعت كل اللي عملته واتمسح عملته تاني.. ووقفت أتفرج عليّ وانا باتكرر وباتكرر. على اليوتيوب كله تكرار متكرر. مين الحمار اللي قال إنت مش ممكن تنزل البحر مرتين!

طب ياخويا يابتاع الفلسفة، ممكن تقولي قَبْلَه، هو إيه حكاية اللمونة اللي بعشرة خمستاشر جنيه، ولّا دي كانت هلوسة وانت مدّهْوِل؟

مين اللي مدَّهْوِل، اللمونة عند العرباوية لما بنشتري البيسا بتتباع كده للهِبْل اللي مش صابرين لما ننزل ويشدوا تحت.. اللي مايصبرش يدفع أكتر!

وطبعًا بتعمل تفاعل مش هاكلمك عنه. مش إنتي بتاعة التصوف برضو.. وعن الطعوم لا شيء مكتوب، والجو ده، مش كاتبة كده على التلاجة. تجربي يا سوسو. والله هتنبسطي والدنيا هتبقى جمييييييييييلة.

وياريتني ماقلت كده، من ساعتها وسعاد بتعد اللمون اللي في التلاجة بالواحدة.

وبعدين لما شافت إنه بينقص،بدأت ماتشتريش خالص.مع إنه مهم جدا للريجيم، كل يوم الصبح كانت تاخد كوباية فيها عصير لمونتين مع معلقة صغيرة كمون، شفتوا التضحية! قلب الأم بقى!

لكن كل اللي غايظني لدلوقتي إني مش عارف أنا باكلم نفسي ولا باكلمهم. وبااتكلم بصوت عالي

ولا واطي.

دي بقى عبقرية الضرب. إنك ماتعرفش إنت بتتكلم ولا لأ، ومع حد ولا مع نفسك.

العبقرية فين؟ في إنك تتغاظ 😂

قصدي في إنه مفيش حدود. مافيش فرق بينك وبين الناس. ولا إنك تتكلم أو تسكت. ولا إنك سامع أو مش سامع.. يعني حاجات مش كده.. حاجات شبه كده.

وبعدين مفيش معنى.. يعني تكلم واحد صاحبك تقوله افتح لي أنا تحت البلكونة بتاعتك ياابن المرة.. وانت قاعد مكانك، وتحدِّفه بالطوب. وتسمعه وهو بيشتمك.

كل ده وانت مكانك. النكتة بقى إن الطوبة تيجي في إزاز البلكونة، تكسَّره وتبْطح أمه... هاهاها. مع إنك يمكن كنت قاصد أمك إنت. لما ييجي ويحكي لك، تضحكوا، تموتوا من الضحك.

المهم، وبعدين يا سوسو.. خلينا في الروح وخروجها.. ها.. وبعدين.. احكي.. دِشِّي..

يخرب بيت رغيك. كنت باقول إن الشائع خروجها من الأنف. طبعًا، خروج الأنف يبقى موتة، وخروج الفم يبقى نومة، عشان كده بانام فاتحة بُقّي.. دايمًا.

وتغير جلستها التي كانت فيها متكورة في الفوتيه، وتطلب مني أن أقرّب لها أذني: لاأستطيع ولم أستطع أبدًا، لاأستطيع الاقتراب.. كله إلا النَفَس.

اسمع، هاقولك سر..

والله يا سعاد لا مفيش مكان عندي لأسرار.. كومبليت ياختي.. آه وغلاوتك.

قرّب بس قبل مايخرج من الدُّش، وجايز ينزل لنا تاني..خليني أحكيلك.

ها، دِشّي يا سوسو..

ياواد بلاش سفالة.. واسمع.

أول امبارح، إنتو نمتوا بدري انتو الاتنين. رحت لابسة جلابية بلدي، وخبيت وشي بطرحة، ورحت على قهوة من قهاوي الحسين. دخلت، كان فيه ناس كتير جدًا.أول ترابيزة عرضت أنا نفسي عليها، كانوا مش مقتنعين، والشاي الاخضر بالنعناع كان في آخره، كأنهم كانوا قاعدين من بدري، ودا مكنش أول طلب يطلبوه.

يا سلام، هتشتغليني يا سوسو! إنتي بتضربي من ورانا يا سوسو؟ أنا خارج. إنتي مش محتاجة ضرب خالص بصراحة.

كنت عايزة ألعب بس.. البيت ده محدش عايز يلعب فيه.. كله جد. حاجة تِقْرِف.

بصي، أنا رايح أرسم على حيطة ورا مبنى الداخلية، تعالي معايا، والعبي زي ماانتي عايزة..

عسكر وحرامية، استغماية، شيك ع العالي، غلب حماري... اللي نفسك فيه.

الداخلية بتحب تلعب وتلاعب. وممكن تقري لهم الكف برضك. بشوقك يعني.

ودلوقتي قومي اطلعي نامي. هتصحي بدري. عندك جامعة.

أصحى إيه ياحبيبي إحنا الصبح.

مش مهم يا سوسو، تصحى تاني.

*** * ***

(عن المحو والممحاة)

لزوجي علبةُ أقلام رصاص ممتلئة. لاأدري كم مضى من الوقت على وجودها هنا. كان يستخدمها عندما كان يرسم المباني ويصممها. علبة بها أقلام مبرية ومسننة. كم عمرها؟ لا يدري، فقد توقف عن الهندسة من بعد أن صار صاحب شركة استيراد سيارات ألمانية، تاركًا الهندسة لصغار المهندسين.

علبة أقلام كلها حادة السنون. مشرعة نحو سقف الغرفة. أقلام تنتهي بممحاوات متعددة الألوان، بين أبيض وأحمر وأخضر فاتح وسماوي.

عندما أحاول أن أمحو بأحدها شيئًا كتبته على عجل، لاتمحو. لقد جفت ولم تعد قادرة على المحو، بل وحينما حاولت إجبارها على المحو لأبدأ جملة جديدة، أكدت الخط، فأجبرتها أكثر فإذا بها تلوّث وتشوه ما كتبت. فلا هو مُحي ولاهو ظلَّ واضحّ الخطأِ. صار بين بين.

عندما تُتركُ الممحاةُ دونما استخدام مدة من الزمن، تجفُّ قدرتُها على المحو أو رغبتها فيه. وتبقى سنُّ القلم قادرَةً على خط الكلام، وتبقى الممحاة بجواره عاجزةً عن محو ما خطَّ من ضلالات وأكاذيب. ثم بالزمن والتجاور، يتبادلان حالة العجز تلك: فلا يعد هو براغبٍ في خط شيء ولا هي براغبة في تصحيح ما يقع فيه من مغالطات.

وهكذا يتحولان إلى حالةٍ مثاليةٍ للتفهمِ.

* * *

(عن اللذة والضحك)

لها ألف وجه تلك اللذة، تلك الخفة التي تمنحك إياها قدماك اللتان تحررتا توًا، وحررتاك من كائن كان يمسك بك. كظل سمِج، كطحلب بعد سقوطك.

تنصيص:

"امسحْ دموعَك، أنت مانيكان، لا وقتَ للعبث!".

أمضي من شوارع لأخرى، ومن حارات لممرات لزنقات لأزقة ساحبًا كلبتي. فاقدًا بضعةَ أسنان وضروس، استقامة عمودي الفقري، وسواد شعري بينما أتذكر أنني في أول ال.... كم عمري؟ لا أذكر. ربما بحجم سجن فُض قسرًا يوم 28 يناير.

لا بل هو كاللجان الشعبية، تابع من توابع زلزال يناير. مولد وانفض.. تاركا الولي والدراويش في غيهم. والأجساد العاشقة القتيلة على الأرض.. عمري يسيح.

هذه الأوقات تؤلمني كل عظامي. هذا المنشار الذي يتلذذ بنشْر لحمي وعظامي، وأتلذذ بإهماله.

الوهم، بطعم رخامه البارد تحت قدمي،أقرفص لأسمح له بالتنفس تحتي، تلك الطراوة المحببة. مقرفصًا فوق رصيف سيدنا الحسين فجرًا. أسحب قرصًا من جديد فآخر فثالثًا فرابعًا ليتسع الفراغُ أكثر، ويمتلئ بفراغاتٍ أخرَ.

يمتليء الفراغ بفراغات والصمت بأصوات وأدوار ووجوه.. فتسقط رأسي فوق جسد كلبتي، أشعر بدفئها وأغفو بجوارها.

أغفو ويعمل مخي بكل طاقته، بكل غرفه وأدواره وآلاته،أشعر به، كل غرفة من غرفه وكل دور منه ينتج مسحوقًا واحدًا وحيدًا أعيد استهلاكه، وهكذا لا تنتهي الطاقةُ التي أنا منتجها ومستهلكها، أولستُ درسًا في الاكتفاء الذاتي أنا!

ألا ترون كيف أتحدث وأسب وأفتح عينيّ وفمي وأرفع قدمًا وأحرّك يديَّ وأصابعي، وأمسك الهواء وأنا غافٍ حاضر.

بين عالمين وحالين.

بين ألمين: لا نوم ولا صحو. أنا أتشبّح ياخوانا: وحالة الشبحية هذه، حيث ترى الآخرين ولا يرونك، حالة مضحكة. فاسمحوا لي بمسح أنفي الذي سال.

الهلوسة هي المسحوق الوحيد الذي يُستهلك فيُنتِج.

تعبت من ترتيبك السخيف للزمن أيتها الحياة.

ماذا؟ ألن ياتي دوري أبدًا؟ أسأبقى مانيكانك هكذا!

وتنصص أمي: "إذا أردت إضحاك الله، اسأله".

وتكتب اسمي.

*** * ***

(عن الأخْذ)

خُذْ فراغك وارحل.

الفرح كالألم كالغباء وسوء الفهم واللاجدوى، كالفشل والجري خلف الظلال.

كلها تضامنت وتكاتفت لتحويلك لكلب يحرسها هازًا ذيله، سعيدًا بما تجود به من فُتات.

مستمتعًا بفراغه وأزيز الذباب المحوّم، يحادث كلبته وأفكاره الكئيبة. أراه من البلكون وهو يطلقها راميًا السلسلةَ من يده. أرى كلبته تمسكها بأسنانها وتذهب بها إليه ناظرة نظرة المنتصر الذي نجح في اختبار قدرات ما. تعود وتقبع تحت قدميه!

كيف نُفْهِمُ حيوانًا كهذا فكرة التخلي!

وبمناسبة الكلب يا قرائي الأعزاء، أحكي لكم حكاية. ولكن هل قلنا صباح الخير، طيب هل نحن في زمن صباح، لا يهم، فالنوافذ المغلقة تُخفي الزمن. ولما اختفى النور اختفى الزمن. لن أفتح النوافذَ، كما كنت أفعل مع سعاد، عندما كانت هنا.

آه، ذكرتموني، الكلبة، على فكرة هي حبلى. وكنت أعشق عيونها، وكنت أعذبها، وكانت ترد لي التعذيب. عيونها كانت زنزانتي.

و الأرواح المعذبة عندما تحيا في محيط واحد تدوّر العذاب.

كنت قد سرقت أمي وأبي، عادي جدًا، أخذتُ شيكًا موَّقعًا وصرفته، ليست سرقة بالمعنى المعتاد عليه؛ فلي حق في نقودهم أكيد.. خلُّونا نسميها نَصَبَاية.

لكن ليس من أجل لا شيء، من أجل كلبتي الحُبلى. أردتُ أن أؤجر لها شقة تكون بيتًا لنا، أردت أن أرحمها من هذا البيت.

وعشنا معًا في تبات ونبات. توقفتُ من أجلها عن المخدرات شهرًا بأكمله، ثم انزلقت قدمي من جديد.. شهر أعاني من آلام الانسحابات. ثم عدت ألتقي أصدقائي وكفرت ببيتنا: أنا و"ريتا"، كان اسمها ريتّا الله، يلعن أبو اليوم اللي شفتك فيه وجبتك معايا.

ريتّا تعوي، وأنا أُسكِّن (آخد مسكنات) وأهدّي (آخد مهدئات) وأحشش، دي مش محتاجة شرح، وأضرب كام حقنة، لو الظروف سمحت، لأني عمري ماضربت حقنة بنفسي لنفسي، وعمري ماشرّحْت إيديه زي الواد نبلة ابن الظابط اللي بيتهم في وش بيت أمي.

ريتا أهي قاعدة وبتتكلم مع نفسها، أنا سامعها بعنيّه، بتقول طيب إنت تهدي وتسكن وتحشش

أنا مال دين أمي، أنا كلبة حامل وجعانة وموافقة آكل سندوتشات فول يا أخي.. خللي عندك دم.

ريتا، كلبتي، لكن تربكني التفرقة بينها وبين سعاد، ولسه مش فاهم قوي، محدش يسألني عشان والله مش فاهم. هربتْ من سعاد لقيت ريتا!

هي جعانة وحامل وأنا اشتريت بكل الفلوس ضرب ومفيش حد يسلفني، وهي حزينة وقرفانة وبتعاتب، وبتقولك تعمل إيه لكن إنت مش هنا! وهي بتستنى إنك تعمل، وإنت مش هنا، وهي بتمسك طبق الأكل الفاضي، وبتجيبه لغاية عندك وتبص في عينيك، وإنت مش هنا، وبتقلب طبق الميه ببقها، وبتغرَّق الفرش، وبتعمل كاكّا على الفرش، كل الرَخَامَة دي وإنت مسقَّط نايم في نومك اللي مش نوم، وبتحرق لحمك والفرش يولع والجيران يكسروا الباب، وهي تعضك عشان توريك، وتنطفي الحريقة، وهنا تبدأ مرحلة جديدة.

الناس تمشي، وهي تكسَّر كل حاجة، حتى السيفون،وتاكل البيبان وتقطّع الفرش. وتلف تلف حوالين نفسها، وتعض ديلها، وبعدين تيجي تحت رجليك وتِخْلص في عيونها كل الأسئلة وكل التوسلات. وبعد ما كانت الأذن منتصبة والعيون لامعة بنار الغضب والجوع، هتلاقيها جاية عليك، رِجل ورا ورِجل قدام، وتحت رجليك وتقعد. وهتلاقي ودانها مِدَلْدِلَة وبتبص لك. وتنكسر نظراتها وتسيح على الأرض، وتحط راسها فوق رجليها اللي قدام، تتنهد قبلها بشوية، النفس الحار ده، التنهيدة دي، آخر حاجة تتحرك فيها.

وتموت ريتَّا واللي في بطنها قدام عينيك.

بل لا تموت ريتا، تأتي سعاد التي تعرف موضوع الشقة، مني غالبًا، وتُطعمها وتسقيها الحليب البلدي بيديها، والزبادي البيتي الذي تصنعه صباح الشغالة، و"العفْشة" المسلوقة بالبهارات والملح الأبيض. يا أخي النساء يعرفن كيف يتضامنَّ معًا، خصوصًا الأمهات منهن. يله يا ريتّا: موتة تفوت ولا حد يموت.

كم هي جميلة رائحة الشياط، لحمي والموبيليا المحروقة، وجرايد بنفرشها على الأرض عشان.... مش فاكر كنا بنعمل إيه بالجرايد دي كلها، لكن آثارَ أحذية كثيرةٍ معكوكة بوساخة الشوارع مطبوعة عليها. أمد يدي لأجمعها وألقيها في الزبالة، لكن يدي لا تمتد. يدي لا تمتد!

إزّاي عرفت؟

مانا باحب أراقب نفسي.

*** * ***

(عن حديث خرافةَ)

حديثُ خرافةَ ياأم عمرو.

لا بدَّ لهذا الشطر من شطرٍ آخرَ. الموسيقى توحي لي بذلك. فلمَ تركتِ لنا نصف بيت يا أمَّ عمرو؟

أسائله: متى ولد هنا؟ وعن أي خرافة يتحدث؟ وكيف يشعر وقد انشطر؟ لا يجيبُ.

ناقصٌ غيرُ آملٍ ولا راغبٍ في فهمٍ أو اكتمالٍ. مثلي يكتفي بنقصانه:

النقصانُ يحمي من سوءِ الفهمِ.

أكتبه على ظهر كفي اليسرى. أتذوق أقراصي بأغلفتها السكرية. أتحايل عليها فتهبني خفَّتَها وأهبها ثقلي ونتوازن. أدورُ خفيفًا. أدور وألف وفي دمي كل اكتشافات الكيمياء والمسكنات والمهدئات والمهلوسات! لماذا يسمونها صراصير!

لأن أي شخص قادر على أن يدوسك بحذائه. ولأن شفتيك تأخذان نفس فمه وهو يأكل.

وكالصرصار لاأحد يعيرك اهتمامًا إلا لتوبيخ أو محاولة قتل.

وربما لأنك ترى بعد بلعها أحلام الصراصير: أن تمشي على الحائط، أو تطير من النافذة دون أن تسقط على قفاك رافعًا رجليك مشرعًا كل حسّاسات وقرون الاستشعار متقيًا الضربة أو متلقيها عن طيب خاطر أيضًا، أو لأسباب أخرى لا أعلمها.

هذه الأقراص تجعلك تمسك ما لا يُمسَك: فأنا الآن مثلًا أرى في يدٍ خرائي وفي الأخرى طائرة ورقية من شارع طفولةٍ.

هذا سرها، إنها تجعلك تمسك ما لا يُمْسَك.

أما "البيسة النميسة " فهي خليط تافه لا يقضي حاجة. وساخة هيروين، ووساخة جَوْفٍ.

والملل يصنع المعجزات. فخذْها ودُرْ.

ويكتشف زوجي وابني المخدرات. يَشِفّان ويذوبان. هو مع امرأة مصابة بمرض الخيبة.

ككل نسائه، وأنتَ مع الشلة التي لا تفهم لكلمة المستقبل معنى.

هو يجلس معهن؛ ليحكي عني، وأنت تجلس معهم لتحكي عني أيضًا.

(الله عليكي يا سعاد أحكام عرفية ومؤبد، على ودنه، مش إدمان ده برضو يا سوسو دي طريقة تقدمي بيها ابنك وجوزك للقارئ).

.....

كلاكما يدور في دائرة بيضاء ويسقط فيها. وتتحولان لخيمة تخفي ثم تسقط فوقكما مع أول عاصفة ترابية. ولن تنسيا أن تستخدما نفس الجمل، من معجزات الملل أن أسمع نفس الجمل مرات ومرات من شخصين:

"لا تخافي لن أُصَاب بالإيدز، لا تبكي سأرى طبيبًا،لا تنتظري مني أن أفسرَ لك أيَّ شيء؛ فأنا لا قدرةَ لي على التفسير". أو: " طظ في كل حاجة "...

وتختم أمي:

" لَشدة ما أنتما ممزقان بين غرائز واتجاهات ودهاليز وفتحات وهويات عدة".

هكذا تسلم أمي سلاحها، وترفع الكفن، تعلن الانسحاب. تعترف بخط يدها، بعدم قدرتها على احتمال تلك الدجاجة المذبوحة التي تتخبط بعد أن انتهى ألمُ لَيْ العنق إلى الخلف، ومرور السكين على شريان الرقبة وقطعه لا تحتمل سعاد وتسمي هذه الدجاجة (غرائز واتجاهات ودهاليز وفتحات وهويات عدة) ولا تقدر على الفرجة على تخبطها في صندوق موتها البلاستيكي أو الحديدي الصدئ، تلك الخبطات تتراجع قوتها تدريجيًا إلى أن ينهد الجسد ويسكن. مشهد لا يحْتملُ الأحكامَ يا أمي العزيزة. فتعلَّمي كيف تحملقين في العيون المفزوعة الغارقة في موت بارد يفتحها لأقصى اتساع ممكن.

اتساع العيون المذبوحة يشبه اتساع العيون المخدرة.

نسمي هذا جُحوظًا.. وبمستوى آخر.. نسميه اللامبالاة آخر درجات الألم..

*** * ***

(عن الاحتماء)

أمطرت المغربية. مطر المغارب دافئ. من النافذة أرنو لحباته الغليظة وهي تعزف باصطداماتها المحببة للأذن والمجهدة من نشاز اصطدامات أُخَر.

أحتمي منه، من حباته، بإطار هذه النافذة.

أمامي، هناك، تلك اليمامة التي لا أعرف أين تركت أطفالها في ذلك المطر، ولا أعرف لم أفكر في أفراخها، ولم أفترض أن لها أفراخًا، يمامة تحتمي من المطر بجسد جهاز تكييف صدئ.

تنظر لي، ترمقني وأنا أضحك منها وتقول: لا أفراخ لي. قد أُكِلوا.

أضحك أكثر، فالمطر الذي تحتمي منه قد أسقط عليها صدئًا. هذا جهاز مثقوب، أقول لها.

باسمة تقول: الريح تعصف بالمطر والصدأ معًا،المهم أن يكون الصدأ من الخارج. انظري! من يفتح النافذة لينظر ويرى يفسد أمانه، ورأسه وجبهته وملابسه أحيانًا.

وأنتِ ابتل ريشك وقد تصابين بذبحة صدرية، ولن تتمكني من الطيران مدة طويلة. انتظري حتى تجفي من الصدأ! أضحك وأقول لها: واحد/ صفر.

تضحك وتقول: بل واحد واحد: تعادل! المهم صدأ الداخل. تلك الماكرة! تكمل:

وكيف تجفّين أنتِ في كتْمة الداخل، لا بد من الريح عزيزتي، ولا بد أن نرى بللنا في النور ونجففه، تقول إن التجفيف أبطأ في الكتمة. وتفاجئني بطيران محلِّق على الواطئ.

أدخل إلى مدفأتي، وأؤكد لها، أن الجفاف يمكن أن يكون ابن الكتمة كما هو ابن الريح. فهي جفَّت وأنا أيضًا..! الجفاف هو الأصل.

أرأيتم، كيف أن كلَّ شيء مدهشٌ في حضور المطر.

وفي الداخل، بعد أن جُفِّفت تمامًا، وزال خطر البلل، تقول لي أختي الشمعة التي أضأتها توًا: أرأيتِ يا سعاد كيف تسنديننني؟

إنك تأخذين جزءًا من لحمي المصهور،و تصبينه تحتي، وتغرزينني فيه، وتدَّعين أنك تساعديننني على الوقوف. وقوفي يستند على نزفي!

أرأيتِ كيف أن كلّ شيء مدهش في حضور النور!

أرأيتِ أنه لا شيء يذهب سدًى!

* * *

(عن الكينونة)

كيف خططتِ يا سعاد لموتك؟

بل كيف ستخططين؟

أكنتِ تحرقين الروح من أجل الجسد، أم أنك أحرقت الروح وبها أضأتِ الجسد؟

أم أنكِ أحرقتِ كليهما وأضأتهما بضربة واحدة؟

يا سعاد، يا أنا ولستِ بأنا! لقد مُتِّ منذ أمد بعيد.

*** * ***

(عن الجمع والفرق)

"نزولُ الجمع ورطةٌ وغِبطةٌ، وحلولُ الفرق فكاكٌ وهلاكٌ.

وبينهما يتردد الخاطران:

إما متعلق بأستار القدم،

أو مستهلك في بحار العدم".

تعلق أو استهلاك... فلم التهالك على الهالك؟

نزول أو حلول... فلم التهالك على الهالك؟

ورطة وغبطة، أو فكاكٌ وهلاكٌ... فلم التهالك على الهالك؟

خاطران يترددان، فلمَ.....؟

....

ما تكتبه سعاد في هذه الصفحة، لا أفهم منه شيئًا.

سعاد بحاجة فعلًا ل"سوفت وير" جديد.

بتاعها ضرَب يا جدعان.

وماذا يجب عليَّ أن أفعل الآن؟

خاطران يترددان؟ إيه الكلام الكبير ده؟

حتى الخواطر بتتردد. يا سلام. أمي لَسَعِتْ. يا جدعان... هههههههه.

(عن ضربة الجزاء)

أن تجلس إلى صديق تعرفه منذ زمن بطول الزمن.اعتدتَ أن تفرغ في حِجْره وبكل أنانية ما تحمل من مهملات، أوجاع، هموم، فشل، بدايات لا تكتمل وكل الأوهام التي وثقت بها، كل الزبالة اللي في راسك.

تتذكر الحشيشَ الذي اشتراه لك من تحت الأرض والدنيا أزمة.

ووقفته تحتك يسند السلم وأنت ترسم الجدران، يسندك بكل جسده.

هذه المرة. لن تتحدث أنتَ، ستتركه يتحدث دون مقاطعة، ذلك الحق الذي طالما سلبته منه، لم يعدْ بحاجة إليه الآن.

كم ملفًا اكتمل في حياة كل منكما؟

عليك أن تفتح بابًا للحديث. تبحث في جيوبك عن المفتاح. تقدمه له وأنت تضحك، يا عم سيبك، هتعدي منها. وتضحكان كأبرع كاذبين. وتهل روح التهكم القديمة.

روح التهكم هذه المرة تخيفك! فمع الألم وهذا النوع من المرض تصبح السخرية ليست بالمأمونة العواقب. لا تستسلم. تساعده على النهوض والإمساك بذيل السخرية:

طيب قولّي قررت تموت امتى وتريحنا منك؟

لكن عيونك الزائغة في جنبات الغرفة لا تسكن، تفضح شجاعتك المزعومة! العيون الزائغة لاتصلح بطانة للسخرية. إنها تُجافي طبيعتها.

فيفاجئك بالسؤال: إيه يا ابني هو مين فينا اللي هيخلع؟ مالك مرعوب كده؟

تدور حروفه حولك، وأنت تمسح مساحات وجهه: نظراته الهلكانة وكل الهالات السوداء حول عيينه، الأرق والألم والهلع الليلي. والأصابع التي تضغط مقدمة رأسه لينزاح صداع يطن. ولمعان جلد رأسه المكشوف.

تشعل سيجارة؛ لتبرر خروجك من الغرفة. بين يدك وهي تفتح الباب وحركة قدمك التي تهم بالفرار من تلك العتبة، تطاردك مئات الصور التي التقَطَها بعدسته للفقراء وأطفال الشوراع والمجاذيب وبنات الليل، وبائعي الأوهام ومستهلكيها. صور الجرحى، وإصابات الأصدقاء،والدماء التي لا نعرف أصحابها، والأحذية الميري.

والوجوه، إنه عاشق الوجوه بوجه خاص. كم وجهًا صوَّره؟ غرفته تضج بالوجوه من كل

الأعمار.

وأنت في طرقة المستشفى الطويلة البيضاء المبطنة برائحة الديتول وكل المطهرات الأخرى تداهمك دقاتٌ سريعة وساقطة وارتعاشات وعرق غزير. تقرفص بجوار باب العنبر وتبكي.

يا عيد، يا عيد: لم أجد ضمن صورك أبدًا صورة مستشفى؟

وإيه كل الأورام دي؟ ولما أدخل دلوقتي هنتكلم عن إيه؟

أسير في طرقة المستشفى أعدِّد الممنوعات الملتصقة بالحائط كذباب المغربية نسي الرحيل ونسي الزَّن: الصوت العالي/ التدخين/ المحمول/ اصطحاب الأطفال و الحيوانات. وإلقاء القمامة.

لا أحد في الطرقة سواي، أُخْرج من حقيبة ظهري التي لم أخلعها علبة، وأرش الحائط "ممنوع اصطحاب الذكريات... لراحة المرضى".

أدخل من جديد. غير راغب في كلام.

المرض يحررنا من عادات الصحة. لا أقول له.

طيب والموت يا ناصح.. بيحررنا من إيه؟ لا يقول لي.

ويعلونا الموت اللطيف الحنون منتظرًا أي تطاول، ونحن في ارتباك السؤال:

ضربة تسلل أم ضربة جزاء؟

ويطلب عيد مني ممسكًا برأسه أن أخرج. وأُغلق الباب. أخرج ولا أسمع صفارة الحَكَم، ولاأرى الكارت الأحمر، لكنني أضحك. وأعرف أن النتيجة اُحتُسبت تعادلًا.

وأن الوقت الأصلي والضائع وبدل الضائع والإضافي، كله انتهى. والنتيجة: تعادل.

نعم. فلنقلْ هذا لننهِ الموقف. تعادل، وليس ثمة لقاءات أخرى.

تسمع صوتَ صفيرٍ وأقدامٍ باتجاه الغرفة. أقدام لا تَراكَ ولا تراها. أقدامٌ عمياءُ. دقاتٌ عنيفةٌ على الباب الذي أغلقتَه لتوِّك بالمتراس من الداخل عليكما. ترفع يدَك وتبدأُ الدقَّ بقبضتيك، ليكون الخبطُ باتجاهين ولافاتحَ.

وبعدها، سأجلس كثيرًا وحدي في الغرفة، أضع يدي على رأسِه، لم يزدْ حجمه! لم ترتبك العيون ولا الرؤية.ما زال يسمع جيدًا برغم نفي الأطباء الإنسان ليس مجموعة من الأسلاك تفسد أو تتمزق، لارتفاع مباغت في الفولت.

يقرأ شفتيَّ ويضحك. الغاز المسمم الذي شممناه شفَطناه وبصقناه عليهم: كل أولاد الكلب. لا ياعيد، لا تقلْ لي إنه الغاز المسمم. على الأقل، لا تقلْ هذا!

* * *

(عن الفوَّهات)

لماذا؟

لأنني لست في المكان الذي أريده.

وهل تعرفينه؟

أنا أعرف ما لا أريد أكثر.

سأخرج الآن من "بيت العنكبوت" هذا، وسأمشي في الشارع تحت سمع وبصر وفوهات القنّاصة.لن أكترث لتخويفه لي: عايزة رصاصة طايشة تخلّص عليكي.

سأسمع كلامك أنت يا نينو، لا تكترثي، القناص لا يهتم ولا يصيب إلا من يكترث. فوهات البنادق لا تهتم بمن لا يهتم. الموت لا يحتمل الإهمال والتجاهل واللامبالاة.

أريد أن أرى القناص، وأن أنظر في عينيه مباشرة، كأننا في وضع حب.

قناصة: قتَلة وقتْلى.

(معلش ياخوآنا، دي أمي " نازلة الثورة "، كانت بتقولي عايزة أنزل أتفرج، أنا فرحانة مش عارفة ليه بس فرحانة عشان تناقشها مع طلابها)..

غريب هذا الحرف: قاف. يدور باتجاهين ولا يعرف كيف يغلق الدائرة كحضن واسع لوحش بحجم الكون، أنظروا: قناصة/ قتلى/ قتلة..لا لا تنظروا، بل دوروا مع الدائرة. اصعدوا هذا الجبل: جبل قاف، وسلموا على الحية المحيطة به، وراقبوا سفينة نوح.

تنطلقُ وقد آثرتْ نصيحةَ ابنها، بالخروج وعدم الاكتراث.

تنطلق عابرة الوجوه المجنحة التي شارك نادر في رسمها في محمد محمود. وجوه مشوَّهة مجنحة. يضع العابرون تحتها الورود والنعناع ويرسمون حدودًا للأضرحة ويأخذون البركة. يلتقطون صورًا معها، يبتسمون على خلفية الموت الودود.

غير عابئة بفوهات البنادق، ولا الرتب، ولا الغاز، تصيبها طلقاتٌ أشدُّ ضراوة. فمع كل طلقة حية كانت تطلِق طلقة أخرى دفاعية. وتتخبط سعاد بخطواتها غير المتوازنة، وتميل. تحت كل هذا الضرب من كل النواحي كان عليَّ أن أركز في ضرورة إتقان التجاهل.. قد أضرَّ بي هذا كثيرًا. وكنت قد تيقنت أن كل الفضاءات مسدودة، ومخترقة ولا نهائية. و" ركزي يا سعاد في ألا تركزي"، "لا تكترثي" أيضًا أثبتت فشلها،فلا شيء يصلح رقيةً ضد الخوف. لا رقيةَ ضد الخوف.

وهذا يعني أنها أصيبت أكثر من إصابة. لا تصدقوا هيبة التجاهل. فقلبه مصاب بالعطب. معطوب بالخوف، وربما القليل من الأمل كالقليل من الزبدة المجمدة فوق شريحة خبز جافة لن تتشربه، لكنه سيبقى لامعًا معزولًا. وتبقى هي جافة.

"سوسو" لم تُصَب برصاصة، لكنها أصيبت. صارت مثل نادر. صرتُ مثلك يا نادر. كعقرب يموت بلدغته. أكنتِ في محمد محمود يا سوسو؟ أأنت مجنونة؟

يقول لها في التليفون، محاولًا إرغامها على العودة؛ لأننا مالنا احنا بالقرف ده؟

ومعندوش وقت يستلمها من مشرحة، دا لو لقاها أصلًا.... وبلاش مراهقة.

وانتي اتعديتي من ابنك المخبول....

وأواصل متابعة خط الدم. أهذا ما نسميه: اللااكتراث؟

*** * ***

(عن الثقوب)

أدخل في منتصف الحوار، على الأقل ليست البداية.

هو: لو أنك قررت أن تقومي بدور الله تفضلي.. لكن وأنت في منصب القاضي يا حلوة لا تنسي متعة المفاجأة، لذة الدراما الحقيرة الرخيصة!

هي: مريض.

أنا: المشكلة أن هذا التبادل النفعي بينهما لم يعدْ سرًا! وطبعا أنتم تنظرون من ثقوب المفاتيح الآن، ولعابكم يسيل بحثًا عن الكيفية التي طُبِخَتْ بها هذه الطبخة. تبحثون عمن وضع يده وفرك وقشّر البصل وسيّح الزبدة ورمى الطاجن في فرن حرارته تشبه حرارة مؤخراتكم التي تنتظر من يداعبها. أفهمكم جدًا! تنتظرون ما تدخلتُ وحذفته، تريدون لحم أبي وأمي. تريدون أكل لحمهما نيئًا. لن أفعل بهما هذا. هذا هو انتقامي من عيونكم القذرة المليئة بالرغبة في أكل اللحم الميْت. لن أمنحَكم هذا الانتقام منهما. نعم لقد تدخلتُ وحذفتُ. سأرمي عليهما ملاءة وسخة. سأسميهما جدلًا: أهلي وأنتم على مستوى ما من الدعابة قرّائي.

وأمي التي ترى أنها تعيش بين مريضين عقليين، كما كانت تقول، هل اكتوت بنار الحدّاد؟ لا تقول لنا القصصُ شيئًا، لكننا نقصُّها عليكم للتسلية.

فمرحبًا بكم في السيرك القومي! أقصد العائلي.

*** * ***

(عن الغياب)

الغياب من القرارات الشرعيةً التي لا تنتظر تبريرًا ولا تهيئةً.

كرماد مطفأة نفضته خارجَ النافذة،ففاجأك بحجم جديد في الفراغ، بكل تلك المساحة التي لم تعطها له.

الغياب يمنح الكثير من المساحة والراحة والتضليل. فما كان حبيس مطفأة سجائر بحجم كف شامبانزي، صار يتباهى ويتبختر في لا محدوديته. المطفأة أعطته حجمًا، والفراغ منحه حجمه الآخر.

في الفراغ، كما الغياب، تعرّفَ على نفسه من جديد: ليس كرماد قعر ما، ولكن كذرات تسبح.

وهو بحالته الجديدة: سقوط محتمل أو صعود منتظر، يحتل الفراغ.

الغياب صورة من صور احتلال الفراغ.

والغياب ليس حضورًا ولا وجودًا.. الغيابُ حدثٌ مذهلٌ.

أحد النحاتين يقول إن النحّات هو المالك الشرعي للفراغ.

وأنا أقول: بل الجرافيتي. مالكٌ لا يكترث بسرقة ما يؤسس، ولا محوه.

و نادر أحمد عبد الظاهر. الذي قضى عمرَه على هذه الجدران، جدران هذا الفندق.

هذا البيت برفاهيته التي تدفعك دفعًا للشوارع. امتهن مهنًا كثيرة، لكنه فضّلَ الشوارع المسكونة بكل أنواع الجن والعفاريت. فالمسكون يشدني،ويعلقني على الجدران فوق سلالم خشبية متهالكة. أصعد إليهم. أصعد كف العفريت.

سكّانٌ يحادثونك ويتلقفون تعبك ويسيّحونه كالزبدة، ويلتهمونها: رأسي.

تلك التي ساحتْ على الأرض، كل هذه الخلايا، إنه مخي، فأغلقوا التليفزيون، لا تنظروا لمخ الشهيد، انتظروا،سأضعه لكم بكامل أناقته على الجدران؛ حتى تحتملوا النظر إليه، تترحمون وتدعون له باحتسابه شهيدًا. تتنهدون بعمق وترمون تحت أقدامه الورد والنعناع، وتلتقطون الصور وأنتم تبتسمون.

نعم إنه الملل، صانع المعجزات.

أنا نادر عبد الظاهر.. ابن هذا الرجل، أنا الذي دومًا كان وجودي ينغص عليه مُتَعَه. كنت أعلم

أنه لا يدخن سيجارته الأخيرة، وأن علبًا كثيرة يحتفظ بها داخل أدراجه، لكنني لم أجرؤ أبدًا على أن أقول له لا.

سأفتح باب الشقة وأغلقه، وأعود على أطراف أصابعي، وأسمعه يتحدث إليها.

ما زلت أسمع مكالماتك:

"لا أستطيع تركها مطلقة بطفل في مجتمع متخلف، لكنني لم أعد أحبها".. "أشعر أنني أنام بجوار أختي"... "هذه المرأةُ ساعدتني كثيرًا، ولستُ بقادرٍ على تلك العيون اللوّامة الشاكية المستغيثة"... " في النهاية، هي أم ابني.. ليس أكثر.. ".. "لاأريد لهذا الطفل أن يُحرَم من أبيه.. لكنه على كل حال قد تعوَّد على غيابي ".....

هذا الطفل الذي يقف خلف صوتك ويرى خرائط أكاذيبك، وأراد أن يركلك كما نركل كلبًا. يراك وأنت جالس في غرفتك مستوحِدًا مريضًا بنفسك بينما هي مريضة بك، تدافع عن حقك في إجازات زوجية، على أن تبقى لها وحدها. اتفاقكما الصامت. الطفل المريض بكما، ابن هذا البيت: بيت الغيابات والأكاذيب: جلد أمي و أبي.

إنني أراك أكثر في الظلام. تعرف أنا لا أراك إلا في الظلام، تتماهى والموبيليا. أصطدم بك أو بها فأضحك.

يأبي أنت أجمل في الظلام، بل إن الظلام لا يكتمل إلا بك.

أحيانًا أغلِّفُك بظلامين: ظلام الغرفة والظلام الأكبر الذي لا أذكره الآن!

وتكتب سعاد: "لا رؤية دون موت!"....

وأنتم أنتم! ما زالت أنوفكم القذرة تستطيل كعضو حصان مستثار. تريدون أن تشفطوا أسرارنا كما يفعل الحيوان الأعمى الباحث عن الديدان في عتمة الطين. ذاكرتي زبالة فسدت وتعفنت بتكدسها، وكتْمتِها. كيف ماتت سعاد؟ يشغلكم مصيرها؟ ماذا يحدث لصفيحة زبالة تخمرت؟

لا أذكر جيدًا الحادث. ربما كان هكذا:

أمي قادتْ السيارةَ إلى لا مكان وهو مكان ليس بالغريب عليَّ، لكنه كان غريبًا عليها.

وفي هذا اللامكان انقلبت بها السيارة نحو مكان آخر؛ فالسياراتُ مجبولةٌ على الأماكن. والانقلاب هواية السيارات عاشقة السرعة!

فرامل سعاد. هي المسؤولة! كيف تفسد فرامل آخر موديل من الفولكس فاجن؟

ربما المسؤول عن الانقلاب، هو عدم التحكم في السرعة وعدم احترام المنحنيات الخطرة.

عندما لا نهدئ السرعة في المنحنيات الخطرة ننقلب. ولكل انقلاب حساباته.

كان انقلاب سعاد من النوع القاتل. شديد السميّة.

والآن سأعيد من جديد: الانقلاب هو المسؤول عن موت سعاد.

وتبقى سعاد في السقف، معلقة في النجفة، تنظر وتضحك. فنحن أبناء صمتها.

وتسألني طبيبتي:..... هاه وبعدين؟ إيه تاني؟ فأجيبها:..... هاه وبعدين إيه تاني إنتي؟

اضطراب الهلع (Panic Disorder) يؤسس لتلك العدوانية، ولا أدري عن أية عدوانية كانت تتحدث معي تلك الطبيبة، لكنني أطمئنها؛ لتعرف أنني صرتُ أقرأ عني كثيرًا.

ثم أُريها كيف أقطِّع لحمي بالموس وأتلذذ. وقد كنت أكذب عندما قلت لكم أنني لم أفعل، ألم تخبركم سعاد من وراء ظهري؟

ثم أتركها عازمًا أكثر على.. لا أدري الآن.. لكنني عازمٌ على فعلِ شيء ما مؤكد..

شيء يُنقذ ماتبقى مني على الأقل! جملة طبيبتي اللذيذة والتي حملتها معها من أيام الكلية، والمحاضرات أكيد.

والقاع؟ سلِّم لي على القاع! و"سنحاول أن ننقذ ماتبقى منك".. برضو سلِّم لي على ما تبقى مني.. القاع هو حلقة وصل بينك وبينك. به تصل إلى السطح: آه السطح..

قولوا معي:السطح.. انظروا جيدًا إلى الكلمة: السطح..... أترون ما أرى؟ حسنًا ما دمتم قد رأيتم.

عوموا على السطح إذن وتنفسوا جيدًا. وأنا سأراقبكم من قاعي الذي يكشف جيدًا أسطحَكم، إذ لا بد لكل سطح من قاع يمنحه ارتفاعه (عمقه المعكوس)، ولا بد لكل قاع من غرقى يمدونه بالثقة بالنفس.

سيكون على أمي أن تفهم ثم تقبل كلامه عن أن المشاعر الإنسانية ليست بهذه الميكانيكية،وأنه و (تلك المرأة) اضطرا لذلك. وأنه يراها استثنائية واجتماعيةً، تضحك كثيرًا، وأنه يحبنا جميعًا.. وأنا أيضًا.. لكنه ربما نسي أن يورد اسمي.

هل تدغدغكم هذه المحبة؟ أنتم حقًا قراء رائعون ومثاليون.

نعم، نحن نتحدث عن المحبة الآن! هل تشعرون بطاقتها؟ أليس هذا الشعور رائعًا؟

وسيكون عليها أن تفهم غياباته الكثيرة وهو بيننا، بينما أضحك أنا:

سيغيب الغائب! "غيبةُ الغائبِ".. تشبه "عودةَ النذلِ". يا سوسو اضحكي بقى!

" من يغبْ لا يرحلْ، من يغِبْ يُسقمك بوجود زائف".

تكتب سعاد لنفسها.

وما كتبته سعاد لنفسها، يخصها وحدها، هذا ليس أنا. إنها تستخدمني. هي لا تعرف إلا نفسها،

ولا تكتب أحدًا سواها. لست هذا الرجل.. ليس أنا.

لكنني أوافقها على الرؤية في الظلام، وأوافقها على أن الموت أفضل صور الاتصال بين الأحياء، الموت وليس الغياب.

*** * ***

(عن البرودة)

" ليس الدخول كالخروج".. هل تفهمونني؟

إذن ثمة عوائق تقف بيننا. فلنتركْ كلًا منا خلف بارافانه ونكمل. فكروا حتى أعود كيف أننا جميعًا حفرٌ عكسية بمعنى ما.

تمرين بسيط:

تخيلوا جسدًا آدميًا، أي شخص تعرفونه، وتقدرونه.

أشعر ببرودة شديدة، بالرغم من أنني ألبس كل الجواكت، أكثر من خمسة جواكت.

سأدير المدفأة، هذه المدفأة التي أكرهها! لاأعلم كيف هو الوضع الصحيح لأزرار تشغيلها.

دومًا أنظر وأبحث. ثم أُخطئ في الضغط على الزر الصحيح..

لم أعد أحتمل هذا.

أيجب أن ننظر للأشياء دومًا قبل استخدامها؟

حالتي ليست جيدة اليوم. أنا بعافية شوية، وفاقد عشرة كيلوات. هذا يسبب عدم الرضا. وهو أمر لاعلاج له. لا الجواكت الخمسة ولاالمدفأة.

*** * ***

(عن المتى)

أنا أمك وأعرف أنك تائه ضائع لكن حتى متى؟ حتى متى؟ حتى متى؟

خطاب الأمهات خراء ودموعهن خراء وآلامهن.....

أتعرفون؟

.. لا داعي لوجود مثل هذه الكائنات أصلًا!

(عن أمراض المناعة)

اليومَ كسبت الكثيرَ منه. هذا المال اللعين، عليك أن تقترب منه بلطفٍ، في البداية، حتى تقتنصه، بعدها كن في منتهى القسوة معه؛ فالعنف هو الوسيلة الوحيدة التي تجذبه، كنوع خاص من الحبيبات أو العاهرات.

فاصل وسنعود. يُحدِّث أحمد نفسه.

25 يناير كانت إجازة طويلة لنلعبَ. أنا شخصيًا وجدت الوقت الكافي للتأرجح. تأرجحت كثيرًا، وكانت فرصة طيبة لاستعادة التوازن.

أتتذكرون أرجوحتي في تلك الغرفة التي لا يدخلها غيري؟

لماذا تكذبين يا سعاد على القراء؟ إنني أضبطك الآن!

ليس أحمد بالرأسمالي المهم، ولا يؤثر في شيء في هذا البلد. أحمد عبد الظاهر يمتلك توكيلًا لنوع من السيارات الألمانية، تسمح لكِ بالرفاهية الكافية، ككل نشاط استهلاكي. بعد أن حوَّل نشاطاته من البناء إلى البيع، من حقه كأي مواطن!

الثورة خربت بيته، وأوقفت الكثير من الاستيراد. صحيح أيضًا، وصحيح أنه يكره الشباب الضائع..... مثلي وجيلي....

" ربما تكون الثورات ضد التسويق. لكنها بالتأكيد ليست ضد السيارات يا أحمد"... تبتسم سعاد بحكمتها المعهودة.

قناعة أبي في ذلك الوقت أنها حركة ضد رجال الأعمال؛ لذا فقد ظلَّ يشاهدها على المحطات الفضائية ويضحك، حتى الآن يضحك.

وأنا لم أفعل ما يوقفه عن هذا الضحك، الجرافيتي، وكل هؤلاء القتلى،كل هذا الدم ليست أسبابًا كافية لمنع أحمد من الضحك.

الضحك يتحوَّل مع الوقت، وعدم السيطرة، إلى نوع من البلاهة تبقى مرسومة على الوجه، تحفر لها مجارٍ وممرات لتتجول بمرحٍ. كأنك تُلصق إعلانًا مجانيًا على وجهك.

وليس علاجُ هذا سهلًا، كأغلب أمراض المناعة.

ما الدليل؟

لا أدري. لا شيء يؤكد أي شيء.

لكنه أحمد عبد الظاهر يجعلني أفكر هكذا، هذا الصباح.

أشعر أنني أفسدت الكثير مما أرادت أمي أن تكتبه لكم، لكن كان لا بد من القليل من الإفساد لنرى أفضل.

*** * ***

(عن ضفائر الزمن)

"خسرتُ عصفورين بحجرٍ واحدٍ. هزيمتان وخاسرةٌ واحدةٌ".

دومًا يكسب، وأنا أخسر، ربما صار الأمر ارتباطًا شرطيًا!

ستبقين هكذا طوال حياتك، توقفين كل ساعات البيت من أجله. تعيدين إنتاج الخيبات ضفائر تعلقينها في رقبتي أنا، أنا الذي لم يهرب بعدُ.

تدق ساعات البيت، ثلاث ساعات كبيرة وغير منتظمة في إعلانها عن الوقت بالرغم من أنه نفس الزمان والمكان. لا أمل في فهم هذا! أهو الذوق الفرنسي في تقديم كل شيء بميعاد. فكل واحدة منها تمنح الأخرى فرصة الدقّ، ثم تعلم أن دورَها قادمٌ، وفرصتها لتُشكك في الأخرى ودقَّتها. ذوقٌ منتظمٌ ودقٌ منتظمٌ، وملل منتظم.

تن تن تن تن تن تن تن.....

كم ساعة علَّقتِ بالبيت؟ وكأنك تريدين أن تتأكدي من وجود المدعو "الزمن". كم أزعجتْني أوقاتك هذه! وحتى بعد موتِك لم تتوقفي ولم توقفي وقتَك! تتركين لي أوراقك.

و تلك الساعات الوفية لك المنتظمة كأنما تريد إرضاءَك في غيابك!

هذا البيت قبرٌ مزخرفٌ بشواهدَ من الدقائق. كل دقيقةٍ منها تتظاهر بمرافقتنا في نفس زمن هروبها. ككرسيٍّ لعاجز يتحرك ولا يتحرك.! كانسحاب المخدرات من دمي، وانسحابه هو، من حياتنا.

وأنا، عقرب الثواني الذي يدور في ثبات وبطء، يصاب بالقلق الرعّاش.. إن مَن صممه أراد له هذه المهمة، وهذا الدور، بل إنه يشبه من صممه، انظروا إنه لا يخجل من الوقوف ستين مرة لكل دقيقة.

لم الساعة ستون دقيقة؟ والدقيقة ستون ثانية؟ لم ليست تسعًا وتسعين مثلًا. ولم السنة ليست ألف شهرٍ؟ ولم الأسبوع ليس عشرة أيام؟ كنا سنكبر أبطأ.

من قرر لنا هذا؟ ولم لا نغيره؟

كلام خارج السياق؟

حقًا؟ ومالسياق؟

ولا أدري لم كان هذا يقلق سعاد، و يخيفها، الحركة والتوقف. فماذا أصنع وأنا عقرب الثواني سوى أن أكون ضئيلًا، أجري، قلقًا، لأمرٍ ما، فوق العقربين الآخرين، في مينا الساعة. فوق أرض بيضاء تكشفني.

هذا البياض! ما أجمل هذه الخطوط وهي تملؤك بياضًا،ثم تحوّلِك إلى بياض. معها تلك المتراصة كجثث تبحث عن قاتلها، تصبح أنتَ وهي وهو وأنتم، كل العالم يصير كلمة تملأ الوقت كله:

طظ طظطظ طظطظ طظطظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ طظ.

99 طظ من أجود الأنواع المفتخرة. لا تعدوا بعدي، أنا وارثُ الدقةَ عن سعاد.

طظ فيكي وفيه وفيكما معًا.

وعلى تويتر كتبتْ أمي لأبي:

"لن يفارقني الشك أبدًا عزيزي أحمد".

وعلى نفس الموقع كتب لها:

"ولأنها بالية فيجب أن ندوسها بكل حزم ومرارة، أقصد عواطفنا. عزيزتي سعاد".

وناما معًا بنفس الغرفة التي جمعت نفَسَيْهما الذي صار أضعف مما ينبغي، ليحيا آدميان معًا.

أما أنا فقد كتبت من موقعي بجوارهما شيئًا ما، لا أذكره الآن. واتصلت أطلب أنابيب أكسجين، لأن الجو صار خانقًا.. احتضنتُ أنا الأنابيب، ونمت كأفضل غواص، لم يسعفه الحظ بميدالية ذهبية في الفوز. قلت لنفسي: في القاع ينام الإنسان أعمق.

نمنا بنفس البيت فرحين. كما فرح تويتر باحترامنا جميعًا حدَّ ال140 حرفًا التويتري، وترانا متراصين بجوار بعضنا البعض، في أي وقت تشاء، وقد أمسك كل منا بجهاز ما، لاب توب/ آيفون، آيباد وراح.

هل لديكم وقت قليل؛ لأحكي لكم حكاية. شكرًا أيها الأعزاء. نريد أن نستثمر غياب أمي وننبش الذكريات.

القناع الذي كان يختاره أبي هو زي عسكري لا يحمل جسدًا، وذلك الذي تختاره أمي كان لوحة لدرويش يدور.

أنا اخترت صورة جرافيتي لكلبتي، وبقيت قابعًا في غرفتي مع "الرهاب الاجتماعي" الذي حدثتكم عنه، والذي يمنع عني القدرةَ على أي تواصلٍ.

لكنه التلصص من خلف. ومن الخلف دومًا يرى الإنسان أفضل..

فعلًا، إنني أتفق معكم: إن حالتي العقلية في تدهورٍ مزرٍ.

"ابني وزوجي مريضان عقليان".

آخر ماكتبت سعاد على الفيس بوك، ومنه على تويتر من خلال تحويلة تسمح لك بأن ترى الكلام مرتين لتتأكد.

فعلًا يا سوسو، إن ابنك وزوجك مريضان عقليان حقًا.. وإلا ما حاجتك لكتابة مثل هذا هنا أيضًا، على باب الحمام!

*** * ***

(عن شبكة العنكبوت)

أمرُّ بتحولات عنيفة كل ٥ دقائق، أرجو أن تعذرونني. فتارة أريد أن أنزل وأقابل الشلة وصديقتي لأحتفل بعيد ميلادي، وأخرى أود لو ذهبنا إلى "مكاتب" أبي وأحرقناها.

تارةً أود أن أتوقف عن التعاطي، وأخرى أود لو كانت لي قوة طرزان؛ لأهدم هذا البلد فوق رؤوسنا كلنا.

أنا هنا دومًا تحت الطلب. سيارة نقل الموتى، كل الموتى من الذكريات التي تودون دفنها.

اشتريت مسدسَ صوت بألف جنيه لا بد للمرء من قوة للقتل.

وهل يقتل الصوت؟

طبعًا الصوتُ يقتل!

وإن لم يقتلْ فالعيار اللي ما يصيبش يدْوِش! البلد مابقاش فيها أمان.

أجلسُ أمامَ شبكة العنكبوت، افتح جوجل وأكتب:

"لا شيء مهم"، ثم أعطيه أمر: ابحث.

أول الاقتراحات: "لا شيء مهم لأخبركم به"..

وثانيها: "لا شيء مهم فالحياة فانية".

أشعر بالرضا، وأبتسم.

(عن الأجساد)

كلمة رجل غير واضحة بالنسبة لي. ولا أعرف أيهما الأخطر، الوضوح أم عدمه؟

وهمّشتْها بعبارة خفيفة الروح: لا أنصحك لا بهذا ولا ذاك....

كتبت سعاد هذه الجملة 99 مرة.. لا أعرف لم كانت تعشق هذا العدد بالذات.

ولماذا عليَّ دومًا أن أعد وراءها؟ لم أردتُ دومًا أن أتيقن من عددها المُشْتَهى 99.

"لقد استخدمْتَنا معًا.. رحتَ تزحف وتزحف وتتلوى وتكحت جلدك القديم تحكه مستخدمًا هذا الجسد: لم يعنيك ولم تفكر أصلًا: ألشجرةٍ؟ ألحجرٍ؟ ألمرأةٍ؟

وهي ذاكرة الثعابين، ربما، ما تجعلك تنسى كل شيء: الجلد القديم، والجسد..

الذي حكَّه لك.

"يا سعاد.. ظننتُني قويًا، لكنني ضعيف: أنا آسف".

(يؤلمني ظهري الآن.. أنا أقرأ منذ 7 ساعات. القراءُة فعلٌ مؤلمٌ والحذف أيضًا).

المضحك الآن أنني أسمع قهقهات أبي؛ فهذا الجلد الأجرب كان لها، لكنها لا تفهم.

وإنني أضحك معه الآن.

ويتسرب الصمت إلى كل مكان.. يتشرب المكانُ الصمتَ في رضا بالغٍ.

أما أنا فالصمت يضحكني جدًا، أضحك لأني وحيد؛ و الوحدة شيءٌ مضحكٌ. إن كل شيء في هذه الوحدة مضحك.خبزها الجاف وزجاجاتها الفارغة الموزعة الشظايا في أنحاء متفرقة، في المنتصف غالبًا؛ فالشظايا لا تحب الأركان. المخلل المتعفن، والساندوتشات التي سمحت للدود بأن يحيا بكرمٍ يدعو للدهشة.

أعقاب السجائر، والهواء المكتوم. الكتمة.

والكتمة أصغر هذه الشظايا مستعدةً وقادرة على قطع شريان لك على أقل تقدير.

أحدثكم عن الكتمة التي تنتهي عادةً بالبكاء أو لا تنتهي إلا به.

وعن الوحدة التي أسقط فيها الآن، وحدي.

أحدثكم بينما أسمع خطواتي تنزلق....
فأتبعها في ألفةٍ مريبة.. دونما طوق.

(عن الموتى)

الحلمُ، بإلغائِه للزمن، يلغي الموتَ. والموتى يستغلون ذلك؛كي يُزعجونا.

بالأمس رأيتُ أبي. كان كما عرفته دومًا. ومع ذلك ترددتُ قليلًا. كلما أرى هذا الرجل أندفع نحو نفس السؤال: من هذا؟

كنت قد استيقظتُ وأنا أقول لنفسي إن المرءَ لا يبعث من الموت إلا دخيلًا، منغِّصًا.

فاصطدمت به بالصدفة كالعادة، في ممر.

لأبي وجه تملؤه التجاعيد، ويد تملؤها التشققات. ووجه جاف.

وآلام ركبه التي لم يكن يرحمها. ويظن أنه يطردها بحديثه عنها. أراها.

لآلام ركبه صوت أزيز محبب لي.

في تلك الأوقات التي رحت أقضيها في مراقبة تشققات جلده وتجاعيد وجهه وروحه. كنت أجد راحة ما.

أسمع أحاديثه المملة، وهو تحت السُّكر والُسطَل، فأبي لا يستطيع الحديث مع أحد إلا عندما يسكر أو يتسطل، الويسكي والحشيش يعطيانه قوة للمس الآخرين والاقتراب منهم، لكن ليس لسماعهم. ليس لهذه الدرجة!

بعد أن ينتهي من الحكي بسبب صداع أو نوم أو لسببٍ آخرَ، ربما السأم مثلًا، نتبادل النظرات بنفس الجودة والجدية. تتداخل النظرات كقفص في قفص.

ويبدأ في الدعابة: خذوا الدعابة بجدية لو سمحتم! فالدعابة منحتنا الكثير من الثقة بالنفس والقدرة على الوصول للسرعة المطلوبة لاصطدام ناجح وأكيد.

و ينهي السهرة، كعادته التي لا تتغير، بنفس التبرير: أكل العيش عايز النوم بدري..

وهذه ال"أكل عيش" هي دعابته. وينسحب، من بيننا، كأنما شُفِط بمكنسة.

سنرد له الصفعة أنا وأمي ونتظاهر.

نتظاهر: أي نعطي له ظهرينا. الظهر أوضح وأكثر صراحة. نحاول أن نجتر أنا وأمي فتات حكاياته لنملأ تلك العين المفقوءة بغيابه، لكننا لا نُفلح. لا أحد يجاريه في حشو الوقت.

نبدأ في الحركة في اتجاهات أخرى؛ لنملأ ما يهددنا من زمن تبَّقى، نتصادم، ونتحاشى النظر، لانفلح كثيرًا؛ فنتبعه إلى الأعلى.

انسحابه، لا يتيح لنا أيةَ فرصة للقرب. أن نكون قريبين أمر لا يتماشى وحضوره، فهو كما يسمم الوقتَ،كان يسمم ما بعده. وقت وجوده سمٌ يسري فينا، وغيابه لا يمحو أثر التسمم.

غيابه يعطي السمَّ فرصةَ أن يعمل، وأن يتمدد وينتشر في العتمة. على مهل. هل ذقتم خطر العتمة من قبل!

فأن نبدأ جلسة من دونه، ليس كما يبدأها هو معنا. تماما كأن تصلي خلف إمام مكروه.

كما كان يحلو لسعاد أن تقول.. في واحدة من نميماتها التي لا تنسى.

ونصعد خلفه لغرف النوم الانفرادي.

أراها أمامَ مرآة، تدور وترصد ما تغير فيها وهي تدندن بأغنية فرنسية حزينة.

في ظل فوضاها أسمعها تقرأ بصوت أرادتْ أن يصلني:

"في هذه الحالة وطالما أنك تريدين الفهم، ولا أطالبك بالقبول،أرجو أن تعتبري هذه المرأة التي دخلت حياتي بمثابة جسد كان علي أن أجده أو أخترعه أو أهرول خلفه كمجذوب من مجاذيبك الذين تملئين بهم غرفة مكتبك. جسد أستند إليه أو عليه، بل اعتمد على قوته تمامًا لأخرج. أتسمينها قذارة؟إذن فالمسألة برمتها هكذا".

واقفًا محاذرًا أن تراني، ألمحها تحضن نفسها. تربت على كتفيها، تمسح دموعها وتتشقق ككفي أبي.

"الليلة أشعر أنني سامة ومسمومة"، تقول لي، فأغلق بابها عليها. بل أغلق بابها كأنني لا أراها. أغلقه لترى أنني رأيت، وأنه طالما رأيت فلا داعي أبدًا لترك البابِ مفتوحًا. وابتزازي بالألم.

يا سعاد، ماتعرفينه حديثًا أعرفه أنا في طفولةٍ بعيدةٍ، هربتْ مني ومنكِ. عندما كنت تكتشفين بالصدفة أنك أنجبت ابنًا يجلس في غرفة مع الجليسة مدفوعة الأجر. ولا يفهم لمَ تأخذ مالًا نظير ذلك.

في طريق عودتي لغرفتي أجدني أدوس بقاياها التي تناثرتْ على الأرض. أعود إلى غرفتي متسائلًا: لم هي باقية معه؟ لمَ لمْ أحضنها وآخذها ونغادر هذا المجنون وهذه المصحة؟ ولم لا أحتمل دموعها لهذا الحد؟

وفي الصباح تخبرني أنه يدفعها أن تكون شخصًا آخر، وأنها لم تعد قادرة على مصافحة الخسارة وجهًا لوجهٍ كلَّ صباحٍ، وأنها قريبًا جدًا سترحلُ. متى تأتي هذه ال"قريبًا" يا أيتها الشياطين؟

* * *

(عن كاراميلا وعزيز)

عندما يُخدَّر ويترك حسابه دون حسابٍات، أدخلُ وأكاتبها.

لم أكنْ أعلم أنها فقدت 15 كيلو جرامًا من وزنها، وأن هذا الفقد يُفقدها 15 سنة من عمرها.. وأنها تصدق 🤦‍♂️ لكن كيف لم أرَ هذا الفقدَ وأنا هنا؟

تقول له، لعزيز: كل كيلو يَقْتصُ سنةً.

فيقول: يا كاراميلا.....

أضحك وأكتب لها: وحشتيني يا كاراميلا!. فترد: كاذب.فأجهّز نفسي لإجابة ما، ثم أسقط بين يديه، الملل، الضجر، السأم، وأنغلق في نافذة معتمة.

في هذه الرسائل الافتراضية أدخلُ اللعبةَ. في هذا الأزرق الذي يقنص الزمان والمكان.

إنها بضاعة الوحدة.... الوحدة بكل أشكالها. وحدتك مع نفسك، ووحدتك مع الناس. أقول لنا.

في هذه الرسائل، سعاد/ كاراميلا/ أمي تغازلُ أبي لتوقعَ به في شرك الوقت. وهو يضع رقبته طُعمًا لها؛ لتصطاده فتصدق أنها تكلم زوجها القابع بجوارها في غرفة مكتبه، تصدق أنها تكلم رجلًا تعرفُه.

كاراميلا تتلاعب بالألوان، يصير زوجُها لونَ عاشقٍ يتلظَّى طالبًا موعدًا. تتلذذ بوضعه في مصيدة الفأر، هذا العجزُ، عجزه طبعًا، ربما هو ما كانَ يساعدها في فقد الوزن والسنين، كما ظنّت.

أما حبيبها الذي أحبَّ الاسم الذي اختارته "عزيز".. هذا العزيز فقد صدَّق أنها عاشقة سقطتْ على رأسه من صحراء قيس، وأنها ستستسلم له إن عاجلًا أو آجلًا؛ لأنهن كلهن يستسلمن، في نهاية المطاف.

كاراميلا كانت تُفرغ كل مالديها من فائض مشاعر في صفحة عزيز؛ حتى إذا التقت به في الصالة صدفةً، وتقاطع طريقاهما شعرت بجفاف قدميها "فصلبت" طولها ولم تنزلق...قد يمنع الجفاف من الانزلاق أحيانًا..

تنزلق ليس من خوف أنها تقابل من لا تعرف، عزيز أم أحمد، لكنها انزلاقات من ارتعب فجأة من كم المعلومات التي حصل عليها دون تعب.

مع كثرة المعلومات وتضاربها، أحيانًا، يهلُّ خوف الانزلاق.

صار يحدثها عن قوائم المعجبات في قوائم الأسرة، وهؤلاء اللاتي صار يتذكرهن بفعل التداعيات. والأهم أنه صار يحدثها بكل تفاصيل علاقته بطنط مريم، تلك التي راودته عن نفسه فاستسلم، لأنها لا تُقاوَم.

وهي بدورها ستلعب نفس اللعبة، نفس اللعبة المراودة، فقط كلمة السرير، هي ما ينقصها. يبدو أن كاراميلا امرأة محافظة.

لكنه، عزيز، قد اختلط عليها، فصارت تحدثه عن رغبتها في الطلاق وترْك كل شيء والإتيان إلى أحضانه، هربًا من تلك الحياة الجافة وذلك الزوج الورقي الذي لم.....

تعرفون، لقد تشابه الأمر عليّ أنا نفسي! لكن ما حفظ لي توازني هو تفكيري في أن كل الألعاب لا بد لها من تطور ما.

هل تريد أن ترى الجنون يا نادر؟ تسألني كاراميلا.

قد رأيته.،لكنها كانت تقصد شيئًا آخر لا يخص الجنون.

تقول:

خذْ مرآة وحملقْ في عيونك، افتحهما على اتساعهما، لا تخف من تلك الرعدة التي تجتاح جسدَك.. عادة يحدث هذا عندما نلتقي أحدًا نحبه بعد غيابٍ.. أسرَّ إليه بكل ما تعلم بصوت عالٍ.. افضحْ كل شيء.. كل ما تعرف.. افتح البلكون واصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. أُصرخْ وأَسمِعْ كلَّ من حولك، بل سِرْ في الشارع واصرخ وافضحهما.. (هم الأربعة)، لا تترك قناعًا لا تمزقه.. هيا يا نادر.. كن رجلًا ولو لمرةٍ واحدةٍ.. تحرضني سعاد.

وبين عزيز وكاراميلا، وأحمد وسعاد، أمضيتُ وقتًا في مصحة. مصحة كعشراتٍ دخلتها للعلاج من آثار انسحاب فانسحبت أنا، وتحنّط ما بي من مشاعر. وصرت أخلط المعلومات اليومية بتلك التي قنصتُها أو كنستهُا من الفيس بوك. ثم خوفًا من عواقبِ المغامرةِ قررتُ ألا أتكلمَ مطلقًا. فقد يؤخذُ الكلام ضدي. (وأنا ضدي الكثير الكثير).

هلا تقولون لي أنتم، كيف تفهمون مثلًا أن تضربَ سعاد/ كاراميلا موعدًا لعزيز، وتصر على أن يلتقيا هنا في البيت في غياب زوجها؟

أو كيف تفهمون مثلًا أن تقول له أنها تود الطلاق من أجل عيونه؛لكي تبدأ حياةً جديدة معه في أي مكان تحت الشمس.

تكتب بالساعات وأنا أقرأ وأضحك.

شيءء واحد كان يرعبني. لاأحتمل سماعه. يشتتني، ويشل تفكيري، وأي قدرة لي على الاستمرار. إنه صوت إشارة استقبال رسائل الدردشة.

أتجول في البيت أتابع صوتها الذي يشبه كثيرًا إشارات جهاز العناية المركزة. ضعيف مكتوم

واهٍ يشير لضربات قلب يقاوم توقفه عن الضخ، لكن الدم بالكاد يمر.

موت إكلينيكي: تك تك تك.. صوت ولا صوت، موت ولا موت، حياة ولا حياة.كارامبلا ولا كارامبلا، سعاد ولا سعاد، عزيز ولا عزيز، أبي ولا أبي..

أنا شاهد هذا القبر. والموتى يتحادثون ويتناجون..الموتى والمرضى وأنا.

فإلى متى سأبقى رهينتهم؟ أأحتاج ثلاثين سنة أخرى لأتركَ وأرتحل وأتخلى!

وهذا الذي يسخر مني،هل يقول لي ماذا فعل بالوحدة؟ أحد المبجلين الحكماء.

أرجو ألا يقول إن الوحدة مع البشر أسوأ. لا أريد أنواعها، أريد شيئًا عن العَقْد الذي نكتبه معها، الشروط الجزائية مثلًا.

إن كل شيء تحت قدميَّ الآن. سعاد/ الكارامبلا، وأبي/ العزيز.

ولا أجد معنى لثورة ضدهما؛ فهما غير موجودين أصلًا.. أحيانًا أشعر بهما، وقد ارتطمتُ بهما أو دستهما في مرور ما في الممرات خافتة الضوء.

لذلك فالأمر لا يحتاج لثورة.

نحن سنتجاور حتى نتحللَ معًا..

*** * ***

(عن معنى ما)

تكفيني الجدران. في الجدران، وأنا أرسمها، أمشي بجواري، أكلمنى، الهواء يخرج من فتحة فمي دافئًا، أحسه،أراه يؤكد لي أنني أحادثني. لا أسمعني، لكنني على يقين من أنني أتكلم، والدليل أن قلبي يطير، وأنني أفضلُ جدًا الآن.

مع الجدران، ذلك أفضل جدًا!

كل شهيد في جدار سقوط جديد لي. وكلُّ شهيدٍ في جدارٍ طيرانٌ جديدٌ لي. وبين كل طيران وسقوط ميلاد.

لا أذكر كم مرة قلت لكما إنني أود أن أحدثكما عن الجرافيتي؟

عن الجدران التي تحمل الشهداء عنا!

عن الجداريات الكبرى لدبابات الإنقاذ!

عن الثورة والحب والأحلام.. عني، كم مرة؟

تكفي إحدى هذه الجمل كي تجلب النوم لكما؟ أنتِ وهو.. كلاكما.

لذا فسأحدثكما عندما تستيقظان.

*** * ***

(عن فارق التوقيتات)

أَتَذْكُر تلك الليلة، حينما عدتَ مجروحًا مهانًا ومنكرًا. سقطتَ أرضا تبكي وصوتك وأنفاسك في وجهي.كنتُ أعلم أن إحداهن قد هجرتك، وكنت مثلك، ليس نفس الخنجر أو الجرح لكن الدمَ نزيفٌ أحمرُ سيَّال. هذه هي الحرارة الوحيدة التي جمعتنا منذ زمن بعيد.

يقرأ معي رسالة من إحداهن طالبًا مني بوصفي امرأة النصيحة والتفسير.لا أفهم حتى الآن، لا أفهم، أي غي هذا الذي تماديتُ فيه، حتى رحتُ أنصحه كيف يلاعبها، وكيف وكيف!

أن تحيِّدَ مشاعرك تُجاه من تحب؛ لتؤكد له أو لنفسك ربما أن الإهمال واللا اكتراث عبيدٌ تحت قدميك. أن هذه الصفعة على وجهه هو. على وجهه هو؟

أن تستعبدَ شخصًا أهون كثيرًا من أن تستعبدَ إحساسًا! فاستعباد إحساس أمرٌ شبيه بالتحديق في جثة؛حتى ينتقل إليكَ موتها رويدًا رويدًا. نظرتها الجاحظة تتشرَّب بريقَ عينيك وتُحجِّرهما.

إنها تمتصُ روحَك.

تحييد مشاعري والتصرف كامرأة لا مبالية بمشاعرها كان رصاصة في بندقية لا تفرغ أبدًا.. تتجدد قوتها وتقوم كالعنقاء من رمادها.أمسك أنا بكل إرادة وأصوُّب أنا أيضًا، وأعيد شدَّ الزناد. ليست كل الرصاصات طائشة.

ماذا تريدين يا سعاد من هذا الرجل؟

لا أريد شيئًا؟

من لا يرد شيئًا يُرِدْ أيضًا.

اصمتي أنتِ أنا أعرف ماذا أريد. فاصمتي.

لكن هذه الحياة معه صار ت كفِراش امتلأ بالحشرات؛ تمنحك راحة متململة متقلبة واستيقاظات قلقة.. واستيحاء. تمص دمك. اهربي بجلدك.. ما زال أمامك الوقت الكافي للهروب.

ولأول مرة تدق الساعاتُ كلها معًا. دون فروقات للتوقيت كعادة ساعات سعاد..

ثلاثةُ أزمنةٍ تتحدُ: آنُك وأمسُك وغدك.

وعندما تتحد كل الأزمنة، أنتَ في خطر.

أحشو البندقيةَ، ألُفُّ كاتمَ الصوت، ثم أعطيه لكَ، وعينايَّ مملوءتان بلذة التحريض، تأخذك أنتَ

النشوة، وتعود لنا مرة أخرى تلك الحرارة والرعشة. ينتفض الجسد بين يدينا انتفاضَته الأخيرة. هل يهل الفرحُ من نوافذِ الحزن؟ لا فرح ولا حزن، لكنه مرور إجباري أو باب طوارئ نستخدمه بوقار، كي لا نسمي مرورَنا هروبًا.

و ككل وقور، عليك أن تجبره؛ ليمرَّ الجسد.

جسدُ من؟

من يهتم؟

من أطلق الرصاص؟ ومن شدَّ الزناد؟

من يهتم أيضًا.

تنظر سعاد الآن إليها، تضحك كونها لا تعرف من يتكلم الآن؟ لا تعرف من تُكلم؟ هي وهي.. هي وأحمد.. هي ولا أحد.. ظلًا يمشي على حائط، مرَّ خطأً ببيتهم، وقرر فجأة أن يساعدها لكنه ضربَ أخماسًا في أسداس وراح يضحك، لما سألته سعاد عن الإقامة أو تصريح المرور! من تكلم سعاد؟ الجدران.

هل ورَّثت سعادُ نادرَ عشقَ الجدران دون أن تدري؟

عشق بفروقات توقيت.

*** * ***

(عن الشطرنج)

ستغلق سعاد حساباتها على الفيس بوك، والمجموعة التي كانت قد سمتها "إخوان الصفا" للمقربين من أصدقائها.

ولن ألحظ هذا.

ستأخذ إجازة مفتوحة من عملها، وتغلق كل ما يربطها بالآخرين: تليفونات، بريد إلكتروني أو أرضي،كل صور البريد. ولن تعد تستقبل أحدًا.

ستبقى في البيت، تمزق بعض فساتينها، وتهادي صديقاتها ببعضها. تغير الستائر لألوان تمتص النور. تغير السجاجيد، ثم تتخلص منها، بعد ذلك.

ستشرب الدوم البارد والكركديه الساخن،الزنجبيل، والنعناع. وستقاطع كل المكيفات. وستجلس كثيرًا في غرفتها. أمام هذا الشطرنج الذي كنا قد بدأناه، وكنت أنا مهدد ملكها بحركة واحدة!

هذا الشطرنج المفتوح بيني وبينها سيبقى هكذا. فكلما أدخل عليها لنفض الدور، تضحك وتقول: لأ سيبه كده، هو حلو قوي كده!

وهكذا صار بيني وبينها ملكٌ قيدَ الموت، ملك تحت الطلب.

(عن الألغام)

زناد مشدود كرغبة تسير فوق ألغام.

ورصاصات كمثانة تريد أن تنفجر دونما حسابات اجتماعية.

نعرف تلك القدرة للقفز على الوساخات، ولا نعرف ماذا نفعل بالرائحة!

ليس مهمًا. فالرائحة لا تبقى طويلًا؛ لذا هي لا تستحق منا عناء التفكير فيها.

لم أعد أدري كيف أغضب؟

لم أعد أدري متى بات عليّ أن أغضب؟

فاستبدلتُ الغضبَ بالحياد.

لا يجب استبدال هذا بذاك أبدًا. لا يجب...! لا يجب!

الخطأ كان هنا.

الخطأ كان في تجاهل الخطأ.

وليس التجاهلُ أمرًا صحيًا دومًا!

* * *

(عن الروائح البعيدة)

كوب الزنجبيل وكوب القهوة.

سعاد تحب رائحة اختلاط بخار الزنجبيل بالقهوة. وهو اختلاط لا يدوم إلا بدوام فترة الحرارة، وهي قصيرة جدًا على كل حال، وبخاصة في أوقات البرودة القارصة. شتاءً كانت أو صيفًا، ربيعًا أو خريفًا.

يهدأ هذا الغليان، وتنطفئ حرارته. وتشرب سعاد الجنزبيل ثم القهوة.

لكن لم تضعين الكوبين متجاورين يا سعاد؟

لأن القهوة لا تمنحك طعمًا حقيقيًا إلا تحت تهديد ما. لا بد أن تهددها.

ولم تشربين الجنزبيل يا سعاد، ثلاثةَ أكوابٍ يوميًا؟

تضحك سعاد وتخفي فمها بأسنانه المفروطة وتقول، بيقوّي الطاقة الجنسية، وبينقَّص الوزن، والأهم إنه بيقوي المناعة. عشان كده ما نعينه في الجيش.

هم يا عيني العساكر مش ناقصين! مش هيبقى الجنزبيل كمان.

وتضحك سعاد، تمسح دموعها، وتقوللي اتحشم يا ولد، حد يتكلم كده مع أمه!

في ليلة كهذه، تملأ سعاد البيت صخبًا وضجيجًا. في ليالي سفره الطويلة التى يختفي فيها أحمد يهل نينو أو نادر أو أنا.

أسألها ولم تستخدمين بودرة "التلك" يا سوسو؟

وتقول سوسو حد يطول يفضل صغير ويقول لأ! وبعدين دي بتفكرني بريحتك لما كنت بترضع. أنا باحب كده قوي. وبعدين إنت مالك،تحريات يعني! هم مش حَلّوا أمن الدولة ولا دي كانت إشاعة! وتميل بزاوية نحو أفق بعيد، وتصمت.

وأبقى بجوارها كلبها الحارس لا يريد أبعد من هذا الدور! لا يبرح بودرة التلك ولا بضع قطرات لبن ثديها الشحيح، ثديك الشحيح يا سعاد!

وكلما أوحشْتني أكثر أرفع أكثر من الكيماوي.

وتكتب سعاد لنفسها:

" هذا وإنَّ الصبرَ الذي يملؤني الآنَ ليس مدعاة لا للفخر ولا للحسد، إنه صبر مَن لم يعدْ لديه ما يخسره، صبر ابن كلب لا يرقى لمرتبة الزهد".

وأضيف: إذ كيف يُزهَد فيكِ يا سعاد!

*** * ***

(عن النقشبندي)

إنها الطفولة وخيالاتها، تلك التي تُلهيها الآن.

تدير كاراميلا صوت النقشبندي، تدور وتلف وتتخبط بين الجدران.

خطواتها تفرك فروة رأسها.

أقدامها تهرس أفكارها وهلاوسها.

ارقصي يا سعاد ارقصي..

عندما ترقصين تنفتح حجب وسماوات.

وأصيرُ في مأمن!

كاراميلا تحادث سعاد في غفلة من النقشبندي.

* * *

(عن الرؤى والمجاز)

كانت أحلامها رؤى، فإذا سقطت من طائرة،تصحو شظايا.كأنها لاتستيقظ، أو كأنها لا تنام أو كأنها لا تستيقظ ولا تنام، تدخل حيواتٍ وتعود مستهلكةً مستهلكةً مستهلكةً.

وإذا طافت بالبيت المعمور تعود وقد برُدت قدماها من رخامه المُبرّد.

إن استقبلت أحدًا، فيدها تبقى قابضة على حرارة كفه اليمنى. وإذا كرهت بقاءها مع أحمد، تَسقطُ الدبلة على سريرها وتصحو حرة الأصابع. الأحلام تومئ لها بما تريد. بل كانت تعرف ما تريد من أحلامها. فتستيقظ شظايا باردة الأقدام بيدٍ قابضة على كفٍّ ما وأصابع بلا خاتم زواج. تدخل حيواتٍ بالأبيض والأسود أحيانًا، وبالرمادي أحايين أخرى، ونادرًا ماكانت تحكي عن رؤى ملونة. حوَّلت كل صورنا إلى الأبيض والأسود. ثم اشترت كاميرا أبيض واسود، وأراحت نفسها. بعد أن صارت لا تريد ألوانًا في الواقع أيضًا.

وصارت تكرر هذه الجملة:أنتم أيها اليقظون دومًا: أي فائدة تجنونها؟

ونصصتْ كاراميلا لعزيز: "ليس على الحقائق كل قولي... ولكنْ فيه أصنافُ المجاز"..

تاركةً سؤالَه: "لمن هذا البيت؟"، يتيمًا، كأبيات كثيرة تركتها لنا بلا صاحب.

(عن النعيق)

لم لا يكفُّ هذا الغرابُ عن النعيق؟ أمامه كل شيء على سور النافذة.

كل ما يصبو إليه، فلمَ يزداد نعيقه! أهو السور ما يضايقه؟ أتراه السور؟

طيب، وماذا أفعل إن كان لا بد من سور؛ لأسند عليه كرمي؟

الزاد والماء، يحتاجان دوما لسور يا غرابي الطيب، فكفَّ عن النعيق، وارضَّ. أو غور في داهية، عندك بدل الصحرا ألف، فاخرج من رأسي، ومن نافذةِ كرمي.

وتستمر المعركة لساعات بينهما، أسمعها تحادثه وتصرخ ليلًا،وأبحث عن غراب الليل هذا الذي لا يظهر إلا لكاراميلا وحدها. فأضحك! أنظر من ثقب المفتاح،أراها في وسط الغرفة تدور، تغني، وتدب الأرض دبًّا. من تحدِّث؟ غرابًا، عزيزًا، أحمد، أم هي الكيميا ملأت رأسي بالأشباح. وتستمر المعركة بينهما لساعات.

وتذهب للعرافين والرفاعية وتأتي بالرقى ضد لدغات العقارب، وعضّات الحيّات. ونعيق هذا الغراب. وتستغرب أنه لا رقية لنعيق الغربان.

(عن أحمد وسعاد)

عندما يتواجهان يتظاهران. تقول له أنت الوحيد في هذا الكون الذي يعرفني تمامَ المعرفةِ. يقول لها هذه أجمل جملة حب قلتها لي منذ سنين حبيبتي. بينما أقرأ في زاوية ما من لسانه،جملة حبيسة، سوقية جدًا، ولا وقت لإيرادها الآن.

تقول له، مررنا بكل مراحل أعمارنا معًا، الجامعة وجنونها، الإلحاد، الانكسارات، وتتعدد "الألآلات" الْ الْ الْ، وأظنه ينام منها. أو نامت هي، وهو المؤكد أكثر.

يقين سعاد له طعم ذباب سقط في كوب وعليك أن تشربه، وتتملى في ميزاته، بل وتشكر الرب على تلك المنحة. أنا رجل يا أحمد وأتعاطف معك جدًا هذه الآونة.

في بهو البيت، في دوره الأرضي، يضحك أبي مع أصدقاء تسويق السيارات الألمانية..

يضحك وهو يتذكر كيف أنه سقط في الطين بعد أن انزلقت قدماه، في أول يوم مدرسي له، اتطّين، شعره ولبسه وشنطة المدرسة، والمصروف،الفلوس طارت وانغمست في الطين، وهو ما أبكاه طيلة اليوم، ولم يعوضه عنها فلوس أخرى مُنحها من أمه. كانت قروش تانية خالص، لا تُعوَّض. ثمة في الحياة ما لا يمكن تعويضه.

في الطابق الأعلى، طابق غرف النوم، أو حائط المبكى، إن شيئًا تم، أمي تبكي، معها أحمد آخر،تبكي وتقول له أنت فخ منصوب لي ليل نهار.أقول لها، ما أهمية "منصوب" يا أمي، وهل تعرفُ الفخاخُ إلا النصبَ؟

تفتح صفحتها على الفيس بوك وأتابعها أنا من غرفتي، جهازي يُمارس القرصنة في أحلى أدوارها. محمود المليجي في أنقى أدوار شره ونذالته. شر ونذالة كما قال الكتاب! أتابعها تكتب له:

"لستَ هنا لتقرأَ، ربما كنت مشغولًا مع أصدقائِك أو زوجتِك أو ابنِك، لا يهم، لكنني أردتك أن تعلم أنني أفكر فيك. ففي الصمت؛ في ذلك المكان السري بين اثنين، أصبح عاشقَّة جيدَة؛لأنني أتمرنُ كثيراً مع نفسي".

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، هو يضحك في الدور السفلي، هي تبكي وتكتب له بالدور العلوي، وأنا ربما نمتُ، لأول مرة بينهما معًا.

* * *

(عن أسنان البق)

البق مجبُولٌ على مص الدم.

كل تواريخ التهديد لن تمنعه.

لا تشعر بحركته الناعمة، ولا بأسنانه وهي مغروسة في لحمك. إنه يخدرك بمادة شديدة الرقة حتى لا تتألم وهو يمتصك. البقُّ كائناتٌ رحيمةٌ.

هذا البيت مليء بالبق. قال نادر لسعاد.

هذه الغرف، وهذا الفرش مليء بالبق، قالت سعاد لنادر.

البقُّ يهضمُ الدمَ بيسر. قال أحمد لهما.

البقُّ يكره الروائح وبالأخص رائحة الريحان. لكنه، البقُّ والدمُ أصدقاءٌ.

قال البقُّ للجميع.

ثم ضحك الكلُّ، ودخلوا للنومِ معًا في رضًا بالغٍ.

وفي الرضا لا مكان لأي سؤال..

لكنه البيت، الوحيد الذي كان غاضبًا!

(عن الروح والريحان وجنة النعيم)

تتذكرون عندما حملتُ جسدها ونزلتُ به القبر، نعم نعم، سعاد التي لا تزن أكثر من 57 كيلوجرامًا. وكاراميلا التي استطاعت أن تسقطني أرضًا بثقلها.

هم كاذبون؛ الموت ليس خفيفًا أبدًا.

قال: التربي استنى انت يا ابني مش هاتقدر، إيه بس اللي نزّلك؟ قال التربي إن الخفيفة هي الروح، و الجسد ثقيل من دونها، ولو كان كيلو واحد. الخفة تصعد، والثقل مسؤولية طوابير الدود النهمة، جيوش العدم المجنَّدة، كل شيء للبيع الآن يا سعاد!

تقترب مني كلبتي، تتمسح بي تضع وجهها بكفيّ، وتبقى ناظرة في عينيَّ.

عندما ندمّر أجسادَنا نقترب أكثر من الحيوانات ونتفاهم، لذا لن أفرط أبدًا في تدميري الذاتي، تلك الرغبة الفاجرة في التواصل.

"أرفع" عشرين حبة ملونة، ونتفاهم أكثر،أنا و كلبتي الطيبة.

وككرة طائرة تخطفها من خصمك وتلقمها فم الشبكة المثقوب. كل حبة تسقط في جوفك. فانظروا كم هدفًا أحرزتُ!

* * *

(عن العطر)

سأحدثكَ عن العطر. عن ذلك العطر الذي لا تعرفه: عطر غيابِك.

تجلس أمامي تحتسي القهوة التي صنعناها معا. "معًا" أمامَ النارِ التي وضعنا عليها قهوتنا. لا نار أخرى تجمعنا منذ زمن طويل.القهوة التي حركناها من كل جهة لتتشرب النار بكل صورها. وسترى الجملة إيروتيكية، وتبتسم. فأرد الابتسام بابتسام.

نرتشف القهوة معًا، ونفكر في نفس الشيء؛ فمعاشرة الصمت الطويل تخلق لغةً أخرى. عيوننا على تلك النار التي تخبو الآن في مطبخنا.نشعر أننا ضيوفٌ ثقلاء، والقهوة الجائرة تمنحنا كل الوقت لنتجرّع كل ذلك.. بكل الصور التي ابتكرتها البشرية للتجرُّع: بطيئها وسريعها. وتتداخل العطورُ فلا أعود بقادرة على التمييز. يفقد أنفي حاسة الشم ولن تتهيج عيناي! وأنت تعلم أنه الحب، لايُحس إلا بالحواس الإحدى عشرة، كعدد إخوة يوسف الذين أَلقوه في الجب محبةً! ألا يذكركم ذلك بالرمانة الفاتنة التي كانت بين يديّ منذ بضعة أيام؟

أنا وأمي شقيقان، وهنا رواية واحدة بين أكثر من مضرب. والقوانين لا تمنع هذا.. الألعاب مرنة جدًا، والقوانين أكثر مرونة، فنحن في عصر المرونة وما بعد المرونة، حتى الدول مرنة، لقد تنازلتْ وانسحبتْ عن كل أدوراها، وجلستْ في الاحتياطي، كنت أظن ذلك، فإذا بي أكتشفُ أنها بين الصفوف الخلفية، صفوف المتفرجين، ثم ألمحها وقد انسحبتْ. أخيرًا فهمتْ. شكرًا والله..لقد صارت الدول أكثر حكمة.المشكلة الوحيدة التي ستواجهها وهي تتسلل منسحبة من بين صفوف المتفرجين، هو انزلاقها، وسقوطها المدوي، على قفاها، لينشطر رأسها شظايا. نعم نعم، ليس سهلًا أبدًا المشي على الدماء، ولا يجدي معه لا التسلل ولا المرونة. ما الذي تحتاجه الدول؟ لا تتهكموا!

أرجوكم لا تشوهوا تاريخ الدول! هذا أمر غير مفيد، بل قد يزداد كل شيء سوءًا.

فهؤلاء الداعرات: الدول، الدويلات لن يكنَّ أبدًا عابرات في حياتنا.العابر هو فقط ما يخضع للمعايير، وهن هن فوق كل الكل.

انتهت قهوتي، في نفس زمن انتهاء قهوة أمي، فيما يبدو. وبقي أبي مع قهوته، اتركوه يحتسيها بقية عمره في ذلك الركن، وحيدًا، اتركوه يجترها حتى يتوقف قلبه لذة وحتى يمتصه الكافايين. بينما يجهز حقيبته لحرب جديدة. ألمحه من بعيد وأضحك. فالجلوس في الزوايا والأركان مددًا طويلًة غيرَ محمود العواقب.

إنه العيد الكبير، غدًا.

سيَذْبح أبي عجلين: واحدًا على روح أمي، وآخرَ نذرًا لأنني أتممت تعليمي الجامعي. أتسمعون صوت خوار العجول؟ دققوا في أصواتها! ألا تذكركم بشيء ما؟

بطعم السكين! رائع.. أنتم حكماء جدا قرائي الأعزاء.. أشعر بدفئكم.. أشعر بوقع أقدامكم على الباب، تقترب من العجلين. سأبقيكم في العراء معهما.

ففي لمس الدم المراق اكتمال ما.. انظروا إلى كل تلك الأكف المخضبة التي لوّثت كل الحوائط، والتي انزلقتْ بسببها الدول منذ قليل.

وتعالوا بنا لنستمتع بالأَعْلام النظيفة الساقطةِ من طائرات جيشِنا الحبيبِ، جيش بلادنا. تلقُّفوها، من الأمام أو الخلف، كما يحلو لكم. خذوها بأي شكل ثم زينوا بها نوافذكم ومؤخراتكم. هذا هو دور الأَعْلام هذه الأيام بعد انسحاب الجيش والشرطة والدولة. الوحيدون الذين لا يستخدمون هذه الأعلام هم الشهداء، تُلَف بها أجسادهم فقط، والقبر يرفض هذا كله. للقبور مواقف تخصها!

انتظروا، أمي تمر بجواري الآن في ثوب أحمر، في دفء الأحمر.. غريبة تغييرها لألوانها. كانت تكره هذا اللون..

تمر بي، تتوقف وتقول:

"إنه بحر العمى".....

هاقد مرت.....فدعونا نعد للأعْلام.

*** * ***

(عن الحقيقة)

سأل رجلٌ مجذوبًا: ما حقيقةُ هذين العالمين مع الخيالِ؟

قال: هذان العالمان: العلوي منهما والسفلي قطرةُ ماءٍ لا أكثرَ.

قطرة ماء اتخذت صورًا عدة، ثم خُرِّب كلُّ نقش علا صفحة الماء، ولو كان من فولاذ.

أفلا ترى كيف أن كل بناء أقيم على صفحة الماء مجرد خيال ولو كان فولاذًا.

فهل يرى أحد الماء بناءً مستقرًا. فكيف إذن يُقام على الماء بناءٌ راسخٌ مستقرٌ.

أقسم لكم أن أمي لو عادت إلى هذه الحياة، وقرأت ما كتبته هنا، لما فهمت منه شيئًا وعقابًا لها، سأتركه. عقابًا لكم أنتم أيضًا.

* * *

(عن خرافةَ)

وخرافة شخص اختطفه ثلاثةٌ من الجن اختلفوا عليه:

*** فأحدهم يقول: نقتله. والثاني يقول: نستعبده. والثالث يقول: نُطْلِقه.**

*** فبينما هم على ذلك الحال، إذ أتاهم جنيٌّ رابعٌ كبيرٌ في السِّن يحمل في يده عصًا، وأمامَه ثورٌ يطارده فقال لهم: إذا أخبرتكم بحديثٍ عجيبٍ تشركونني في دمِهِ؟ قالوا: نعم.**

قال: أما أنا فكنت شابًا صغيرًا فذهبتُ أنا وإخوتي السبعة لنخطب ابنة عمي، فبينما نحن جلوس هرب هذا الثور وهو عجل صغير، فقال عمي: من يمسك بالعجل أزوجه ابنتي، فأخذت هذه العصا ووضعت حولي الحزام وذهبت أطارده ولي الآن سبعون عامًا أطارده لا أستطيع اللحاق به، إذا وقفتُ وقفَ وإذا تحركتُ هربَ، قالوا: حديثٌ عجيبٌ، وأشركوه في دمه.

*** فبينما الأربعة مختلفون إذ أتاهم جني خامس فقال: مثل ما قال الأول وقالوا له: نعم.**

فقال: أما أنا، فكنت أعيش في مدينةٍ من مدن الجان، فضاق علي العيش، وقررت السفر لأبحث عن لقمة عيشي، فتهت في الصحراء، وبلغ مني العطش مبلغه حتى وصلت إلى بئر في وسط الصحراء فنزلت لأشرب الماء، وعند وصولي إليها صاح بي صائح فتركت الماء وصعدت لأنظر فلم أجدْ أحدًا، فنزلت مرة أخرى فصاح بي ذلك الصائح ففعلت مثل المرة الأولى، وفي الثالثة صاح بي فشربت من الماء ولم ألتفت إليه، فسمعت رجلًا يقول: اللهم إن كان امرأة فأمسخه إلى رجل وإن كان رجل فامسخه إلى امرأة، فمسخني الله إلى امرأة وصعدت البئر، وسرت حتى وصلت إلى مدينة بعيدة وتزوجت بها فأنجبت طفلين، ثم حدث بعد سنين أن اشتقت إلى مدينتي الأولى وقررت العودة إليها، وفي عودتي مررت بتلك البئر مصادفة، فنزلت فصاح بي ذلك الصائح فتركته وشربت، فدعا عليّ بمثل ما دعا علي في المرة الأولى، فعدت رجلًا إلى هيئتي الأولى، ووصلت إلى مدينتي وتزوجت هناك وأنجبت طفلين، فإن لي الآن أربعة: اثنين من بطني واثنين من ظهري، قالوا: حديث عجيب وأشركوه في دم الرجل المختطف.

فبينما هم مختلفون آذ أتاهم جني سادس يركب بغلة ومعه غلام له (عبد) يركب بغلًا فقال لهم: إذا أخبرتكم بحديث عجيب هل تشركونني في دمه؟ قالوا: نعم، فقال: أنا ابن ملك من ملوك الجان، مات أبي وتركني على العرش وترك أمي، وكانت أمي تخونني مع أحد العبيد، فكشف الأمر هذا الغلام الراكب على هذا البغل، وعندما علمت أمي والعبد أن أمرهما انكشف، عملوا سحرًا لي وللغلام، فاحتلنا عليهما حتى شرباه، فمُسِخَتْ أمي إلى هذه البغلة التي أركبها، أليس هذا صحيحًا أيتها البغلة؟ فهزت البغلة رأسها وذرفت دموعها، ومسخ العبد إلى هذا البغل الذي يركبه الغلام، أليس هذا صحيحًا أيها البغل؟ فهز البغلُ رأسَه وذرف دموعه، فقالوا حديث عجيب وأشركوه في دم

الرجل المختطف.

وما زالت الجنُّ

تكثرُ

حتى اتفقوا

في نهاية الأمر

على إطلاقه.

*** * ***

(عن اختبار التوازن)

قال لها: افردي ذراعيك، أغمضي عينيك، ضحكت لأنه كان قد أطفأ كل الأنوار وأظلم الغرفة،فما قيمة العيون المفتوحة؟ لكنها امتثلت.

كانت جالسة على الكرسي الطويل، لمَ كل كراسي الفحص بطول الجسد فقط، وليست بطول الروح مثلًا؟

يطلب منها التركيز، الأمر جِدّي فعلًا. تتغير النبرة وتخيف بإلغازها.

تنزل، تقف. وعندما تبدأ في المشي، تسقط، كفرخٍ، دُفِعَ من العش لطيران أبكر من اللازم. تسقط دون أن تصطدمَ بأي شيء. تسقط بجسدها،.تسقطُ ولا تكفي يدا الطبيب لتسندها.

مالتْ نحو اليسار قليلًا ثم سقطتْ.. هوتْ.. بكل ثقل الجسد.

في اختبار التوازن رسبتْ سعاد.

قالوا لها هو ورم في المخ، أورام تمنعها أن تتوازن في الظلام.

الورم كان في الجهة التي تميل!

عندما لا نتوازن في الظلام، نحن مرضى.

أتراه الظلام سبب السقوط؟ أم أنه كاشف المرض؟

أكانت كل هذه الأورام، والتي ظنَّتها سعاد، صداع نقص النوم، تريد أن تعطي لرأسها وروحها ثِقَلا ما كي تتمكن من الثبات، بعد أن تخَّلت عنها الجاذبية الأرضية؟

أتتخلى عنا قوانين الأرض عندما نمرض؟

لا مفرَّ من البتر.

بتر ماذا؟

الأورام.

وماذا تفعلون في الفراغ الفاغر الذي ستتركه؟ أستبقى رأسي فجوات، خاوية. أتظنونني أوافقكم؟ ابتروا مخي أسهل.

ثم كيف سأشعر بعد ذلك؟ أقصد الألم.. حجم الألم؟

ستشعرين وكأن قطارًا قد داسَكِ، كأنك خرجتِ من تحت عجلاته.

وبمَ سيشعر القطارُ بعد أن يفعل بي هذا؟

و تضحك سعاد، دوما عندما تبكي.الضحك يجلب لها البكاء، والبكاء ابن كل ضحكها.

قد تفقدين الذاكرة، وقد تفقدين القدرة على الإحساس، شلل نصف الوجه، وقد تفقدين الرؤية بعين، وقد تفقدين، بل هو مؤكد، أنك ستفقدين السمع، أذن واحدة فقط هي التي ستعمل. لكنك على كل حال، تفقدين القدرة على تذكر الكثير الآن. مساحة كبيرة طُمستْ من الذاكرة.

الذاكرة معطوبة من زمن يا دكتور. لكن أذن واحدة ليست كافية!

تخرج سعادُ من غرفة القبر؛ حيث ذلك النفق الذي دخلته وأخبرها بكل تلك النتوءات التي تملأ رأسها، تشكره، يرد جهاز الأشعة المقطعية بابتسامة وتودد:

لا شيء مؤكدٌ عزيزتي، لكننا نحاول أن نكون على قدر المسؤولية؟

تمد يدها وتصافحه معاتبة بعد أن تمسِّدَ جسدَه بيديها:

لكن لمَ أخبرتهم هم، كان من الممكن أن تُسِرَّ لي أنا؟ ألستُ صديقتَك!

ترفع درجة اللوم في نبرة صوتها.

يرفع الحجاب عن وجهه، وقد تحولَ إلى حيةٍ تسعى، ويسرح في بلاط المستشفى، هاربًا من سُمِّها.

وتبقى الغرفةُ عائمةً في الفراغ، ومخ سعاد عائمًا في النتوءات والتكتلات الحميدة، ويبقى الطبيبُ كتلةً بيضاء لها ابتسامة شاحبة.

تواسي يد سعاد الرخامَ الذي يحوي روح الطبيب، وتنسحب.

تقول لنفسها: تعالَ بنا يا يومي الجميل نبحث عن ضوضاءٍ ما تليق بنا: بك وبي على السواء.

وتضحك وحدها في السيارة، وقد اكتشفت أن الأورام تتغذى على الذاكرة والذكريات.

وتضحك أكثر عندما تكتشف أن فصيلة دمها قد تغيرت وصارت تلك الO التي تعطي كل الفصائل ولا تأخذ إلا من نفسها.

*** * ***

(عن المغناطيس)

تمشي سعاد في البيت، تجذب كلَّ ذرة فيه كمغناطيس.من روح أحمد تجذب الحسرة. ومن نادر الخيبة، وتذوق ذلك الطعم لخبز محروق، شهي مر.

ومن اليمامة الرابضة هناك على سطح الجيران، تجذب هذه التلفتات.

ومن العنكبوت الجاثم في ركنه، في سكينة الأركان، تجذب الخيوط بطعم العرقلة.

وبين يدي سعاد تتمزق خيوط العنكبوت خيطًا خيطًا، فينكشف الكائنُ قبيحًا بلونه الوردي، مسيئًا للورد. هشًا معطوبًا من كل جانب.

"ستبني من جديد، وسآتي لأهدمَ" تقول سعاد ممازحةً عنكبوتها.

لا تفهم العنكبوت وجودها دون بيتٍ. تسقطُ أرضًا، وتتخبطُ في اتساع الأرضية وبرودتها. تتسلق الحوائطَ من جديد.ولا تفهم العنكبوتُ لم سقطت أو ألقتْ بنفسها، ولمَ عليها أن تصعدَ من جديد. لا تتوقف كثيرًا هنا؛ فنظرات سعاد تحملها على الصعود بسرعة، إلى الأركان.

وتضحكُ سعادُ ضحكةً ليست من هذا العالم، سأحكي لكم فيما بعد أنا عن ضحك سعاد، فلكل ضحكة شخصية، ولكل شخصية ضحكة.الضحكاتُ هي سُعَاداتُ سعاد.

إلا ضحكة واحدة، ضحكة لم تعد تظهر هذه الآونة. تضحك وتقول:

ما يلزمنا هو ضبط زوايا واتزان.. أنا ضبط اتزان، وأنتِ ضبط زوايا. وهذا الحسّاس المسؤول عن "نقل" السرعات عطلان أيضًا، وحتى التوكيل، لا يستطيع إصلاحه. ويقولون لك: صناعةٌ لا عيبَ فيها. السيارات الألمانية لا تنقلب أبدًا. هذه سيارة ضد الانقلاب بكل صوره. سنرى.

وتتحوّل العنكبوت إلى تنين بسبعة رؤوس..تغني له سعاد وتضاحكه:

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف..

سقاني مثلما يشرب فعل الضيف بالضيف..

فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف..

كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيف..

تقول له، يا لرقتكَ، لمَ يخشونك هكذا؟ يمد لها رقباته السبع، يلاطفها بيديه ويود لو يراقصها. تقف سعاد من جلستها وتميل عليه تهمس له، أي رقبتين من هذه الرقاب أمسك،ليس لي سوى

يدين اثنتين؟ تفكر للحظة كيف تقسم يدين على سبعة رؤوس.تهتدي للحل. تمسك يداها باثنتين وتترك الخمس الأُخَر عالقة في مغناطيسها، متأرجحة لكن لن يفوتها الإيقاع، والرقص ليس بمنتهٍ.

تدور، وتُسقِط تنانيرها واحدةً تلو الأخرى. تنورة الغفلة، فتنورة صدأ القلب ثم تنورة الطلب وصولًا إلى الاستغناء، وعند خلع تنورة الحيرة تطول الرقصة ويشتد الدوران. وفي التوحيد لا تجد تنورة لتخلعها، فتنمحي وتذوب أجساد التنانير التي سقطت أرضًا. تتشبث برأسي تنينها، تراقصه و بين يديه تترك له نفسها.

عندما ترقص سعاد وتشرب ترتدي تنانير وتخلع أخرى، وتتوجه روحها وتتجول وتجري كنهر، نهر يبحث عن سدود؛ تثبت له أنه نهرٌ!

تتوجه حيثما شاءت هي تعرف جيدًا أماكن الخسارات. تتشربها روحها ولو كانت على بعد أميال. تسافر روحها كل ليلة،إلى أماكن أخرى. روح سعاد تعمل جيدًا بالليل.

روح سعاد روح ليلية. وردية الليل، بالنسبة لها، تعادلُ النهاراتِ كلَّها.

روح من قبل سعاد.

تتخبط في بداية الرحلة، ثم تتوجه بهذه البوصلة: الخسارات.

الخسارات بوصلة سعاد، ومرشدها، وشيخها ومرادها.

وهي عقرب البوصلة، والبوصلة وإن كانت تشير لأماكن، لكنها بالأساس تذهب بها لأزمنة.

من تزورين الليلة يا سعاد؟ من ستتشربه روحك الليلة؟ لا يهم. فالمغناطيس لا يهتم إلا بما يعاكسه، ليحقق به توازنًا ما. يشعره بوجوده. المغناطيسُ ابنُ الجهات.

لا جهة للمغناطيس سوى ما يجذبه! أو ما يتعلق به. وكل ما يتعلق بهذا المغناطيس،تبقى قدماه في الهواء، تتأرجح.كقدميها حين دار وطار بها تنينها. لا يستطيع أن يحتضن هذا المغناطيس. الاحتضان ليس صفة من صفاته! إنه يُلصقُكَ به فقط، أو يلتصق هو بكَ، وتبقيان في حالة تعلُّق: كل منكما متعلق بالآخر.. جزء بجزء.

تعاني روح سعاد من الترهل كثيرًا، والسمنة المفرطة أحايين كثيرة، بل دومًا..

في الآونة الأخيرة صارت تجابه ما تخشاه، وبالأخص التراب. فتجلس ككلب خلف الباب تاركةً من يفتحه، يمسح بها بلاط الأرض.أدمنت روحها هذه اللعبة: أن يُمسَح بها البلاط. هذه الأمور تمنحها فتاتَ يومها من الفرح. ثم فجأة، تهِمُّ واقفةً نافضةً عنها تراب أسفارها، وتغادر إلى نافذة ما.

وما أكثر الأوقات التي صارت تقضيها في النوافذ، صامتة.

*** * ***

(عن النوافذ)

ما أجمل أن تَرْقُبَ عصفورًا يقف بنافذتك تاركًا الغصنَ، وبراحَ الشجرة. قادمٌ لك؛ ليضحكَ لك، ويتحدثَ إليكَ.. إليكَ وحدكَ دون سائر الخلق. يرفع رأسَه لأعلى،كأنما يشير عليك بشيء ما. يأخذ رأسك بين جناحيه، ويخفي عنك الرؤيةَ، والنورَ. يضعك ويضمك في عتمة ماتحت الجناحين. تمامًا تحت حوصلته الفارغة إلا من الماء. مما يعطيها قوامًا إسفنجيًا مريحًا لمن يرد الراحة. ثمة تشابه ما بين هذه المنطقة والرحم.

تشم رائحة طيرانه بين الريشات الخفيفات، تسحرك تواريخ الخفة. الخفة الاسم الذي يشرح معنى البكاء: الخفة.

يتلفت التفاتات صغيرة متتابعة، يسبح في براحٍ: براح الحافة. يقف على قدم واحدة وينام في الحافة يزعجه دخان سيجارتك وبخورك، وبالأخصِ تزعجه عيناك، نظراتك،كأنما كان عليك أن تُغلق أنت أيضًا عيناكَ؛ لتكتمل الرؤية، ولما لم تفعل، يوقف جريان بحر الزقزقة الذي كان قد لفَّ به صباحك ينحني ويميل قليلًا على أحد جانبيه، استعدادًا لطيرانٍ ما، لكنه قبل أن يطير لا ينسى أن يقول بجناحه الأيسر وهو يخبط وجهك تلك الخبطة الرقيقة كأنما يقرؤك السلام. يقول لك:

لا تطمع، فهو بحر العمى.. لا تطمعْ.

هذه الزياراتُ تتكررُ كثيرًا هذه الآونة. عندما تغلق كل مجاري التواصل بالآخرين. كلها، وأولها الأكل والشرب والكلام. للصيام فعل السحر.كيف أشرحه؟

صيامٌ يجلبُ عصافيرَ صباحيةً لا تدري بأية رسالةٍ حُمِّلتْ. لا أنتَ تدري ولا هي. وكأي حمام زاجل، لا يعرف جناحاه شيئًا، سوى الوصول والتسليم. التسليم هو الوصول وهو المعنى النهائي بالنسبة له.

ما يجلبُ تلك العصافيرَ أيضًا، البكاءَ الغزيرَ، البكاءُ ليلَ نهارَ،البكاءْ.

كأنك في جنازة تتمسّك بك فيها يدُ من تودعه، يرفض أن يتركها، كأنما يقول لك إنه يعلم أنك تودِّع الدنيا مثله، لكنك باقٍ رغمًا عنك: بالجسد.

تلك اليد التي لا تريد أن تعترف بأن عليها أن ترحل في هدوء. تلك اليد التي تمسك بذيل الثوب وتعوقك وتبقى تعوقك: تبقيكما في إعاقة ما..

تلك اليد.

ويحكي لك عصفور الصباح عن هوْل الطريق، والدم الذي ينز من الأجنحة، ويُلَبِّك الريش..

والريش الملبَّك يعوق الطيران..

يحكي لك العصفور.

عن الخوف الذي يطوّق الرقبة، ويسميه البشر، طوقَ اليمام.

هذا الخوف، ابن الطريق، وأهمُّ آدابه، يأتي بعده في الأهمية القلب الخالي.

ولكل طيور السماء نصيبٌ فيه، هذا الخوف،كما العلو، والرجاء، لكنه الخوف وحده هو الذي يطوّق الرقبة، وليس كل جماعة الطير تعلم ذلك.

.....

أتعرفون أنني أسمع صوت بكاء أمي المكتوم وهي تكتب هذا، بل غالبًا ماكنتُ أجلسُ معها في الصالة، وبيننا باب من جسد الشِبَاكِ"، من نفس النسيج، وكانت روحانا أيضًا غالبًا في غاية الوهن، وقتها. كانت معطوبة كقلبينا.

لا، لن أضع هذا التعليق هنا، ربما لأنها لم تكن تحب أن يشاركها أحد، أيُّ مخلوق لا في غمِّها ولا عصافير خوفها، تلك التي وإن كانت تطير في الخارج حقًا، لكنها تعششُ، هنا، في الداخلِ.

سأذهبُ للنافذةِ، وأكلِّم نفسَ العصفور الذي لم يعد يسأل عنها، ككل العصافير.

لا ألومه؛ فللعصافيرِ ذاكرةٌ سيئةٌ.

أتعرفون؟.. لذلك نعشقها، هي تَسْبي العقول لذلك، الذاكرةُ السيئةُ لها سحرُها.

*** * ***

(عن الغصن الذي انحنى ومال)

انحنى ومال.

الغصن انننننننننننحنى، ومال ل ل ل ل ل ل، ومال، ومال.

المجد للنون واللام. شُبِكَا أمْ لمْ يُشْبَكَا:

ن ل...

نل...

* * *

(عن الثغرة)

أكانتْ سبعَ سماواتٍ أم سبعةَ مستوياتٍ للوعي؟ أم سبعةَ أيامٍ؟

بعد زمن العزلة، عندما يكسر الإنسان صمتَه، لا يعود كما كان قبل زمن الغار أو زمن الكهف، أو زمن الغرف. لا يعود. يجد موسيقى تملأ بيته. والموسيقى تجلب الطيور. فيجد بيته وقد امتلأ برفيف أجنحة تزاحمه، فلا يفكر، ولا يأكل، ويبقى يفكر في الطيران. فهل الطيران شيء حقيقي ولا بد منه؟ احتياج حقيقي؟

أثمة خطأ لايغتفر في كلمة "حقيقي" هذه؟

هذا الدواء الذي وصفوه لي مؤخرًا سيئ جدًا. فبسببه لاأجد القدرة للإجابة عن أي سؤال.

"يبدو أنكِ أفقتِ متأخرةً جدًا، لتكتشفي أنه.. يا سوسو؟ ويبدو أنه ينتظر مني أن أنضم للنساء الديمقراطيات، وأقبله هكذا. و...".

تكتب سعاد في دفترها، وتنقله لعزيز في حوارٍ هو ليس فيه "على الخط".

ويرد عزيز بعدها بعدة ساعات:

"يا كارميلا، لم أسألك أبدًا عن اسمه، فلنقلْ طارق مثلًا. كوني معه كالكرة التي تتدحرج بعيدًا، أبعد مكان ينتظرون منها الذهاب إليه. لا تفعلي مثل هند، امرأتي. ولأكن عادلًا، كانت هند أجمل امرأة في أول سبع سنوات من حياتنا، لكنها تدهورت أثناء السبع الثانية. وسبعة على سبعة تعطينا واحدًا صحيحًا: واحدٌ بمفرده. أنا يعني.

تعرفين يا كارميلا، لقد فككتها بنساء كثيراتٍ. كورقة من ذوات المائة، وقد تحولت بين أصابعك إلى عشر عشرات. لكل واحدة منها طعم ورائحة ومذاق بحسب مامرت به من أيادٍ. وما استُعمِلتْ فيه.

و"الثغرة" هنا، أقصد الخطأ هنا تعرفين تلك الفِرقة التي حوصرت لأشهر في "كبريت" ثم قتلت بالكامل يوم أن أُعلن وقف إطلاق النار. ما زلت أسأل نفسي: لم تتحدث دومًا مع ابنها عن الثغرة؟ الثغرة بالنسبة لي، يوم أن أعلمتها بعد أن أعطيتني الأمان "أنا أحب هذه المرأة"، هذه بالذات. لم أحب من كل ما مر عليَّ سوى ثلاث مرات، كانت هي منهن. كنت أظن أنني في أمان الاعتراف. كنت أؤمن بالاعتراف في الحب تحديدًا. اعترفتُ لها؛ لأنني لم أكن أشعر أنني وسخ كما كنت مع الأخريات! أتفهمين ذلك الإحساس بأنكَ وسِخ! وجئتها أعترف. فكتبت على صفحتها كل الرسائل التي كتبناها أنا ومريم، ونشرتها بالقسمة على 140 حرفًا، في صفحتها على تويتر.. كيف احتملت

أن تفعل هذا بنفسها.. ولم اختارت تويتر رغم أن الفيسبوك كان سيوفر عليها المجهود، والنتيجة أكثر فعالية. جمهور أكبر، وجهد أقل؟ فلمَ؟

كأنها تعذب نفسها بالصبر. كانت تريد أن تقطِّر كل هذه المشاعر بيني وبين أخرى سواها، كل يوم جملتان أو أكثر.دام هذا لأكثر من سبعة أشهر. يوميًا. بعد أن سرقت رسائلنا في إحدي غفلاتي. كم كنت مغفلًا... منتهى الخبث!

وتهديدات أخرى يومية لي ولها.. من أين أتتْ بكل هذا الشر..! لا أعرف لمَ أحكي لكِ.

"يومية" يا أحمد! يا لك من كاذب. تحادث سعاد كاراميلا!

"يا عزيز لمَ...؟ كنت أصدق أنك عزيز، أنك لستَ هو. هذا ذنب يُضاف لذنوبك صعبة الغفران. كيف أشرح لك الآن أن رفعي شعار التخلي، وتثبيت اللافتة باليدين كي لا تسقط، لإثبات حسن النية، وعدم الغفو كي لا تسقط، فتح الأعين على اتساعها، وشرب عشرات الفناجين من القهوة والماء البارد المثلج، لأبقى مستيقظة حاملة اللافتة: التخلي. لكن يبدو لي وقتها أن التخلي في أحد معانيه كان يعني عدم التخلي، أو على الأقل، لايعني التخلي. أو أنه ينبغي عليك أن تنام، تاركًا تلك اللافتات اللعينة تواجه مصيرها.. تعرف، في النهاية: أنت لا تعرف من هو هذا الذي حرصت كل هذا الوقت عليه، دعمته، وحميته؟

أهو هذا الألم يتضاعف عندما تقول، إنها علاقة حب، هذه المرة؟

أهو ألم اتهامي بأنني لا أريد لك الفرح. وأن الأمر لا يزيد على الرغبة في الامتلاك..

أتركك الآن. أريد البقاء في أقرب مكان دافئ: المدفأة تعمل جيدًا اليوم.

جميل هذا الحوار في هذه الشبكة التي تمنحك فرصة قذف ما لا تستطيع هضمه، هنا و في أي وقت. كما أنها تحمل للآخر المتحدَّث إليه نفس الحق في الرد. هنا لا تعمل جيدًا شركات جمع الزبالة.

معكم نادر، وقد تداخلتْ فعلًا الخطوط في عيني، كما تداخلت الأصوات أيضًا. فبدلًا من أحمد وسعاده، وكاراميلا وعزيزها، دخل على الخط طارق وهنده.

وصار مؤلمًا ومربكًا جدًا لي ألا أعرف كيف أحكم، غام كل شيء.وحان موعد الخطوط الأخرى، إنها أكثر وضوحًا.

الوضوح نعم، إنه أمر جيد ولطيف، لكنني لا أنصحكم به أنا أيضًا، كما قالت كاراميلا من قبل!

*** * ***

(عن امبارح)

- آلو...

- أيوه مين؟

- أنا يا بنتي.. من امبارح ما سمعتش صوتك.. صوتك وحشني...

- مين؟

- نجوى...

.....

منذ متى لم أسمع جملة فيها كلامًا عن صوت ووَحشة.

عن "امبارح" الذي كان دون صوتي.

هذا يحدث لي عندما تكون النمرة غلط. فلمَ أخطأت نجوى؟

أهي النظارة لم تضعها؟

أهي لم تُخطئ، لكنها الصدفة تريد إفساد صباحي؟

أم هي امرأة من نسائه؟ وكيف أعرف؟

لذا؛ أنصحكِ بالنسيان يا سعاد.

*** * ***

(عن الأضرحة)

ثمة طفل يلهو وحيدًا ببقايا ورود جفَّت. لا يهتمُ بالمقرئين أو الزوَّار أو النذور، أو الرحمة والنور. في الحقيقة لا يمكنك أن تعرف فيمَ يفكر وهو يجري بين القبور يفتِّش، فأنت تلمحه من بعيد، ولا تسمع صوتًا لخطواته، ولا نفسًا تشم من أنفاسه، ولا سخونة ليديه، ولا احمرار لخديه في قيظ الصيف هذا. حركة ساكنة مكتومة بكاتم صوت.

طفل يحمل جدًّا وأبًا، نفس تواريخ القلق والتوتر والاضطراب. أرانى فيه.

يلهو بورود بعضها جفَّ، وبعضها تعفَّن من سوء التهوية؛ تحت تل من ورود أخرى.

إنني أحمدُ كل ما يمكن أن يُحَمدَ لموتك يا سعاد..

أعود إليكما، كنت أعود إليكما،أنتِ ونادر، فلا أجد إلا الصمت،كأنني في صومعة قديس ممسوخ. نعم نعم، قديس ممسوخ.مسخ يمتص الأرواح ليتجدد ولا ينتهي.

كنتِ مسخَ هذا البيت. لا نعرف لم لا نغادر، كأنما اعتدنا هذا الشَّفْط وسلَّمنا. وتقولين: "لما أموت ماحدش يزرني، لا إنت ولا هو".

أراكِ الآن وأنتِ تضحكين ضحكة المومياوات، ولا تخفين فمك كالعادة خوفًا من ذلك التهديد: اقتحام الباطن، فكما قلتِ: سيأتي يومٌ يتحد الظاهر بالباطن ونستريح. وتضمين فمك على لا أسنانه، ولا شفاهه، ولا ملامحه، وتتكورين وتنعجنين بظلمة قبرك وعتمته.

"الظلمة ليست العتمة يا نينو! العتمة أمرها أجمل. لا ينمو شيء إلا في عتمة ما"..

جملك تحيا في غرفك، مخي الممتلئ بأدوار من الشكوك يا سوسو.

صباح الشك يا أمي. صرتُ مثلك الآن، أرى ما سأفعله قبلها، فلا أجد الرغبة لفعله.

كنت أفكِّر في زيارتك اليومَ؛ لنتفق على اسم لهذه الرواية:

أنا أريدها: "كف عفريت"..

وأبي يريدها: "تعادل"..

وأنتِ كتبتِ في مكان ما: "حديث خرافةَ"، وفي مكان آخر "مقام التخلِّي".

والقراء يريدونها: "خرم إبرة"، ربما.. سأسألهم.

سآتيكِ اليومَ، وننتهي من هذا كله!

فأكثر من اسم عبث.

واسم واحد عبثٌ أيضًا!

كله عبث في عبث.

(عن كف العفريت)

"نعم نعم، إنه هذا العفريت، وتلك الكف.

من هذا العفريت؟ وما حكاية كفه هذه التي لا يكفها عنا. يفردها لنا، يغرر بنا لنبدأ في البناء ثم... ينفخ. تلك النفخة التي تقوّض كما خلقت من قبلُ.

اليد. إنني أهتم اهتمامًا خاصًا باليد.اليد".

لمَ يا سعاد؟

وتقف سعاد هنا، لا تخُطُّ شيئًا.

سعاد أنا ضائع بين أوراقك الآن.. مسكين القارئ.إذا كنت أنا ضعت فكيف سيكون حاله.

طيب يبدو أنها تتحدث عن البناء وبالمناسبة جاءت سيرة اليد، فأدخلت الأمور في بعضها كما تفعل وتذيل الكلام دوما ب: تداعيات. لكن لنصبر قليلًا ربما فهمنا أفضل.

تكمل: "إنه صباح مخيف هو ذلك الصباح الذي تستيقظ فيه سعاد فتجد نفسها خالية من أي معنى.تدور وتلف وتطوف بكل خلية من أنفُسِها تبحث وتبحث. تراها تأخذ يدها وتتوجه بها إلى علبة القمامة وتفتحها. تنبشها وتضحك.تَخرجُ المعاني كلها من هنا هذا الصباح.تفتح يديها المتسختين، وتقول هذه الجملة له لصباحها بكل طبقات الصوت: هاتان اليدان المتسختان هما المعنى الوحيد.

تجلس أرضًا بجوار صفيحة القمامة، وتنظر من أدنى لحوائط المطبخ وأرضيته، وتبتسم ابتسامة من ارتاح ليقين ما، وتعلنه لنفسها:

نعم كل المطابخ وسخة.. شديدة الاتساخ".

(لكن يا سوسو، ما علاقة كف العفريت بالبناء والتقويض والمطابخ الوسخة؟).

"كفٌ تصنع ما يبدأ بالقلق والأرق، ولا ينتهي بشيء!

وللحيرة، فهذه الكف لن يراها أحدٌ سواك!

لكن ما إن تصعدها حتى تبدأ ارتباطًا عاطفيًا غير مفهوم معها، وتبدأ في الارتياح كونها تتفهم عذاباتك.

كأنها بصمةُ الروحِ!

* * *

(عن باء البكاء)

يدخل نادر وأنا أكتب.

يقف خلفي، أحسه بكل جسدي وروحي، ولا ألتفت.

يسألني لمَ أبكي، وأجيبه بأنني لا أعرف لمَ!

ثم أفكر في تلك الإجابة: ربما لتدخل العصافير واليمام غرفتي.

كثيرًا ماكان يسأل نفس السؤال، وكثيرًا ما كنت أكذب، وأخترع أسبابًا ليست لي.اليوم ظننت أنه قادر على فهم إجابتي. نعم،سيكون على قدر تلك الإجابة،كما صرت أنا على قدر سؤاله أيضًا. وأعدتُ الإجابةَ عليه مراتٍ ومرات، كأنما أردتُ أنا أن أرى معه.

يخرج.

سيدخل مرات أخر في أيامٍ تتتابع في رتابة، وسيراني أبكي، ولن يسألني، لكنه سيقول بمنتهى الحزم والتركيز، كقائد يعطي أمرًا ما لجنوده:

ماما، كوني شجاعة. زامًا شفتيه يخرج،مطوّحًا يديه في الهواء، وكأنه على يقين بأنني على مستوى المسؤولية، مسؤولية حكمته هذه فأضحك وأنا أبكي. هو أمر ليس بالجديد أبدًا، بل إنه لأمر محمود....لكنما هذا الأمر أرضاه كثيرًا هذه المرة.

ما زلت أفكر: أنطوّح أيدينا في الهواء كثيرًا بعد الأوامر؟

أنطوح أيدينا عندما ندرك أنه لا يمكننا فعل أي شيء لمن نحب سوى تركه والخروج: ذلك الخروج الاضطراري؟

ما زال مكتب كارامیلا يقبض على خروجات اضطرارية كثيرة، وقفز دونما مظلة.. وما زلت أسأل مطوحًا يدي في الهواء أسأل: لمَ تكتب هذا الآن؟

لمَ تريد إرباك أزمنتي؟

لمَ تعود هكذا إلى البعيد. ولم لا تريد أن تراني إلا هناك، بهذا الحجم؟

*** * ***

(عن امتداد النداء)

وتسقط. نعم نعم، هي صحراء، حيث لا أحد إلاك. هذه معلومات أكيدة..

بين النداء والانتظار.. لا يحدثُ الكثيرَ.

تنادي، موقنًا أن ثمةَ من هو في طريقه لإنقاذك.

وفي الانتظار بين صدى الصوت والصوت نفسه، يقبعُ الأملُ.

تعيدُ النداءَ، ومن النداء يتشكّل هذا المخلِّص.

وفي امتداد الصحراء، وأنت قاب قوسين أو أدنى منه، تسأله:

لمَ جئتَ؟ كنت تركتني أنعم في ندائي إياك وانتظاراتي المحببة. هلا رددتَها علىّ؟

يضحك وهو يخفيك في جلباب مودته القوية كالموت، ويسألك أولمْ تتعبْ؟

أولمْ تهلككَ هذه الامتدادات؟ ألا تنعم قليلًا بأبَّهة القرب والوصل؟

وأنت في اتساع صحرائه وقحطها، تبقى تسأل في اتساع جلبابه ذاك عن مهربٍ من هذه النجاة!
ولسان حالك يقول: كلُّ اتساعٍ إلى ضيقٍ.

*** * ***

(عن حاجات غريبة)

قررت أروح لسعاد. هادوَّر العربية وهاطلع على طول.

هافتكر الطريق، ومش هاضرب أي حاجة ع الصبح. عايز أكون فايق وانا داخل عليها.

النهارده جمعة من دون اسم. يعني الدنيا فاضية.

أخدت لها صورة آخر جرافيتي رسمته لحيطة دار القضاء. هاسيبه لها هناك.

يمكن ما يعجبهاش.

قتيل من دون عين. واحدة مفتوحة والتانية مفقوعة.

عايز أتكلم معاها في حاجات كتير عن كتابها. عايز أقولها إني قررت تغيير حاجات كتير، وإني جيت أقولها. حاجات كتير نسيت تقولها، وحاجات أكتر كتبتها غلط.

لأنها ماكنتش فاهمة.

وعايز أفهم ليه كتبت إني "صرت أُمثِّل خطرًا عليها، وأن عليها أن تحترس كثيرًا مني. وأنني قد أصبحت أنافس أبي".

في أي شيء أنافسه؟

ثم أنا إن كنت خطرًا فعلًا فعلى نفسي بس!

وبالرغم من كده، فأنا ماقتلتش نفسي زي هي ماعملت. أنا عمري ماتقلبت بالعربية إلا مرة ومامُتِّش.

عارفة يا سوسو الفر ق بيني وبينك إيه؟ الحيطان. اللي نفسي فيه أو مانفسيش فيه باحطه على الحيطة. إنتي ماكنش عندك الحيطان دي. بس مش مهم.

مش عايز أقولها إن كل واحد فينا بيعيش حياتين: واحدة في الحلم، والتانية هتاخذنا للقبر. لأنها زمانها عرفت.

أنا عارف نفسي، على ماوصل عندها، هاكون نسيت كل حاجة. عشان كده هاكتب الكلام ده هنا، فلو نسيت أقوله لها هتقراه بعدين.

أصل الآن لقبر أمي. لاأذكر إن كنت قفلت السيارة أم لا. لن أعود لأتأكد. ممل هذا التردد الدائم،

سخيف هذا الاهتزاز، وعدم الثقة.

سخيف كل هذا. أتقدم رافضًا النظر خلفي. مؤكدًا لنفسي إن هذا التردد والقلق سيحمي السيارة من أن تُسرَق.

غريبة مش كده؟ وبالرغم من كده أنا متأكد.

وعلى بعد أقل من متر، ألمح شبحًا بالداخل والباب موارَب. أنظر للمفتاح في يدي، من يحمل مفتاحًا آخر لأمي؟ لمقبرة سعاد؟

اقترب أكثر، الظهر لا يساعدني كثيرًا. هي امرأة، رائحة عطرها تغرق المكان كله. شعرها مصفف بعناية، لا أستطيع تحديد اللون الذي ترتديه. أقترب أكثر، أقف فوق رأسها، لا تشعر بي. بينما أرى ساقيها المشدودتين من الفستان الميني جيب الذي ترتديه. ساقان جميلتان!

أحاول أن أرى وجهها من زاوية يكشفها نور الباب المتسرب. آه عرفتها.

إنها تلك المرأة التي تَجرُ زوجها خلفها، كلما أتت لزيارتنا. ذلك الرجل الطويل النحيل الذي يبحلق في كل شيء. والذي تغير جسمه مؤخرًا فصار سمينًا، وبالأخص أصابعه. والذي لايضحك في الأمسيات. والذي تسحبه دومًا كلما زارتنا، ربما لتطمئن أمي، التي كانت تعلم جيدًا ما بينها وأحمد.

في الحقيقة، كلهم كانوا يعلمون، وكلهم يظنون أنني لا أعلم. كنا خمسة نحمل سرًّا واحدًا. هذا غريب على سر!

هذه هي أخت أمي، صديقتها الحميمة، من الثانوي حتى الجامعة. رفيقة سفر كثير وكاتمة أسرار أمي كما كانت تقول من قبل.

كاتمة الأسرار هذه، تذكرني بكاتم الصوت.

وزوجها يذكرني بكلبتي لكنه بدون حبل. لا يحتاج الناس حبلًا لنجرَّهم. الناس أكثر مطاوعة ومرونة.

إزّيك ياطنط؟

أهلًا حبيبي.

تقبلني، وأسمع صوتًا ما يلهث، وأنفاس رتيبة لنوم ما.

أنظر تحت قدميها.

كلب.. إنتي اشتريتي كلب يا طنط؟

أيوه يا حبيبي.

ماله؟ عيان؟

لأ. لسه عامل عملية خصي. مش ناقصة وجع راس ونوبات سخونة شهرية، إنت فاهم.

لأ، مش فاهم. والحب يا طنط/ مش حرام تمنعيه من الحب؟ دي ماتجيش منك؟ هاهاها..

مش لازم يتجوز عشان يحب. العملية مش هتمنعه يحب.

آه، حضرتك تقصدي يحبك يعني. وازي أونكل عصام على فكرة، مش كويس؟ ماجاش ليه معاكي؟ وازاي دخلتوا إنتي والكلب؟ وإيه اللي فكَّر حضرتك بسوسو؟

أنا بافكر فيها دايمًا،وزرتها كتير، وقالت لي إنها زعلانة منك عشان مابتزرهاش.

لا والله. فعلًا؟

وحضرتك وبابا مش مع بعض خلاص؟

إيه؟ بتقول إيه؟

باقول ياطنط مريم أنا فاهم إنها فرصة. سوسو خلعت وتقدروا يعني.....

نادر، إنت عارف؟ إنت مش فاهم حاجة.... على فكرة أنا....

أنا ممكن أشرح لك..أنا كنت مجرد صديقة لأبوك، عمري مانمت معاه. سعاد كانت فاهمة غلط. أنا هنا عشان أشرح لها.

أكيد يا طنط أكيد.. حتى الكلب موافق أهو. شايفه بيهز ديله ازّاي.

باقولك إيه، هو أنا ممكن أشم شعرك. على فكرة إنتي وسعاد فيكو كتير من بعض. قصدي.. السنين اللي قضيتوها مع بعض، غريبة فعلًا، السنين دي خلتكوا شبه بعض. مش غريبة دي؟

يانادر، يمكن كاراميلا كانت فاهمة غلط، بلاش إنت يا حبيبي تعمل نفس الغلطة.. بلاش.

يا طنط مريم، هو كلبك اسمه إيه؟

هيرو.

هيرو.. ازّيك يا حبيبي. تعالَ هنا، هُب فوق.. هُب هُب هُب.. ها.. قوللي الحياة مملة مع مريم ولا؟

نادر، هات السلسلة لازم أمشي.

يا طنط، والله هو مش محتاج سلسلة خالص. هيمشي وراكي بين رجليكي، ماتخافيش.

ممكن تقولي لي، سعاد سمحت بالزيارة دي ولا لأ؟

يا نادر، لو يعني عايز تقعد معاها لوحدك.. أنا ماشية حالًا.

لكن قولي لي دخلتي هنا ازّاي؟

تفتكر ازّاي؟ التربي فتح لي.

باعتبارك من العيلة يعني؟ والورد، وجايبة مقريء أهو.. وعاملة الواجب.

"عندما لا نملك نعمة التحول، نسقط مع الزمن في الحزن والضمور، ويضيع جمالنا".

أنا اتغيرت يا نادر. جملة سعاد دي غيرتني. آخر جملة كتبتها لي على الفيس بوك.

جملة غيرتك؟ طيب. تعرفي يا طنط، إن أنا نفسي فيكي من زمان؟

بمغادرة مريم المقبرة، خرجت سعاد، شربنا الشاي الذي أعده التربي لنا على الفحم.

هل ذقتم طعم الشاي على الفحم؟ من لم يذق طعم الشاي على الفحم، لا يعرف الشاي.

ووافقت سعاد على التعديلات. قالت إنها تثق فيَّ، ولا مانع لديها من أي حذف أو إضافة. لكنها رفضت الإجابة عن كل أسئلتي الأخرى التي كانت ستسهل الكثير وتساعدني على الكتابة. سعاد امرأة لا تساعد على الكتابة. بعد أن تحولت إلى شجرة كما كانت تأمل. نعم صارت سعاد شجرة أخيرًا.

كثيرًا ما كانت سعاد بخيلة. ككل النساء اللاتي عرفتُ، بشهادتها: المرأة السرطان، والمرأة الجوزاء، والمرأة الحية، أقصد العقرب وغيرهن....

كلهن كن مريم، يسحبن الرجل مخصيًا بسلسلة خلفهن، متباهيات برشاقة خطوته، وطاعته لهن. وبينما يراه الآخرون رجلًا، يرينه هن كلبًا، ويسمعن نباحَه.

بل ويتجرأن على القول إنه يمنحهن الأمان الذي يفتقدنه، وان ذلك كان سبب الاختيار!

قولي لي يا سعاد، كيف تكون مريم صديقة عمرك؟

لأنها نقيضي يا نادر.

هي تضحك كثيرًا، وأنا لا. هي اجتماعية جدًا وأنا العكس. هي لا تؤمن بالحب وأنا الضد. هي هي وأنا أنا. الصداقة ليست أن تشبه صديقك حبيبي!

فاكر الأبيات اللي كانت بتخوِّفك:

كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيف

آه. لأ مش فاكر، بس فاكر الساعات الكتير اللي كنتي بتحبيها، كل الأزمنة دي لسَّاها شغالة على فكرة، تحبي أجيبهالك المرة الجاية؟ عمومًا، كل زيارة هاجيبلك حاجة.

كنت دايمًا كده. كل ماتخاف تغير الموضوع. أبوك كان كده كمان. ما عدا موضوع واحد بس...

...الولد اللي هارسمه ع الحيط بكره اللي الدبان أكل عيونه وساندوتشه. آخر جرافيتي هارسمه. كان بيبيع بطاطا في محمد محمود، والداخلية كانت مجنداه يجيب أخبار الشباب. أخد رصاصة في قلبه. 11 سنة. اتقتل في معسكر الثوار، وهو بيقطَّع البطاطا.

وشه كله دبان، ليه؟

لأ، مش وشه بس، والحيطة اللي هارسمه فيها هاتكون كلها دبان. الدبان من أيام الفراعنة يا سوسو، المرة الجاية هابقى أحكي لك.

ليه آخر رسمايه؟

عشان هاسافر في رحلة طويلة. عايز أرجع من غير سلسلة في رقبتي.

الزيارة الجاية هاجيبلك لوحة تانية. وهاكلمك كتير. أنا اكتشفت إني باحب أكلمك.

وتجيبلي رد للسؤال ده: هل السعادة معايا كانت مستحيلة زي ما كان بيقول أبوك؟

ويتغير مرة أخرى وجه سعاد فجأة، يصفر، وتسقط أسنانه، وتخرج من عيونها نفس الديدان التي خرجت من قبل عندما أكلت اللب الأبيض. تتكور وتدخل قبرها تاركة ورد مريم فوق قبرها، ولوحة الجرافيتي بالذباب الحائم يزن.

أتراجع إلى الوراء أدوس أكواب الشاي، أصطدم بجسد التربي، وصوت سعاد:

"ركز وبلاش تجري؛الشوارع مش حِمْل جري".

أسحب طائرتي الورقية أشدها، وأطلقها في الآفاق، تعلو وتجمح ثم تتعقد وتتمزق بأسرع مما كنت أظن. كيف أخلصها من موقعي هذا؟

أقول: مش مهم.

ثم أقول ثانية: طبعًا مش مهم.

*** * ***

(عن رُخَص الرجوع إلى الوراء)

وكأي كسلان سئم القيادة، تترك سيارتك في وضعها المضحك أمام بيتك. مؤخرتها ملْووحة، مستعدة للخبط. تحلم به، كأنه التاكسي الذي طال انتظارك له، فيأتيك.

الجو خانقٌ بالداخل. تنظر للسائق، وتحاول فتح النافذة، لكنه كأنما لا يراك وأنت تحاول.

يرد على هاتفه، وهو يضحك ضحكًا عصبيًا:

ازّاي أعرف هارجع إمتى؟ أكذب يعني! دا زي الحلم يامه، تعرفيش إمتى هتنامي ولا هتحلمي إيه. استنيني وخلاص على ما آجي.

تسأله أن حق فتح النافذة من لوحة التحكم الأساسية التي أمامه في المقدمة.تسأله مستغربًا لمَ منحَ نفسَه هذا الحق دونك! وتبدأ المعركة في رأسك، من أعطاه الحق؟ وأين هي حقوقي؟ ولم وكيف...ووو..

يرد بأن زجاج النافذة خَرِبٌ، وأنه لا يُفتح،لا لك ولا له. لوحة التحكم لاتتحكم في شيء؟ لا في فتح ولا في غلق.

ويقول لك عفارم عليك! ولا تدري لمَ هذه العفارم؟ وهل هي مدح أم ذم؟

يكلم نفسه ناظرًا للناس في الخارج، كله بيرجع بقفاه، وكله بيركن بقفاه.. بلد ماشية بقفاها. هههههه. والله شكلهم واخدين الرخصة على ورا. ع الرَّكْن يعني!

يا عم اضحك، واضربها صرمه! معاك سيجارة حشيش بقى!

الثقة التي طلبها بها تجعلك تخرجها، ولما يمدها لك لتشاركه، ترفض: خليهالك.

دخلنا الروضة أهو، ولا تزعل.

ومش بضهرنا!

إنت متأكد؟

حد متأكد من حاجة في البلد دي يا بيه!

وتفكر صامتًا فيما قلته، ومؤرقًا بما لم تقله، وما كان ينبغي عليك أن تقوله. وأنت تخرج من التاكسي مؤرقًا بتلك الجملة التي لم تقلها، ينظر لك ويقول: يا أستاذ حياتنا كلها بقت عملية قيصرية. ربنا ينتعنا بقى.. الواحد كِفِر.. دنيا خرم إبرة!

خرم إبرة.. هذا هو: ما قلناه وما لم نقله وما ينبغي علينا أن نقوله.. وما نريد أن نقوله وما نحب وما نتمنى كله خرم إبرة آه والله يا.... كان اسمه إيه؟

خلينا نسميه خرم إبرة. كان عم خرم إبرة جميل الوجه جدًا.

أجمل مما يتصور هو نفسه ربما.

تضحك وأنت تفكر في كلامه عن التوكيل الذي لا يعرف كيف يصلح عطلًا بنفس اليوم أو من الأساس. وكلامه عن أن الناس صارت كالكهوف، كل واحد مقفول على سوَادُه، وأن الناس لم تعد.....

وهو يحكي لك ستحكي أنت لسعاد التي ستقول لك أحكامها غير القابلة للجدل عن أن كل الأمور لم تعد واضحة فلم نبحث عن الحلول الواضحة! أو ربما قالت شيئًا قريبًا من هذا...

وتطلب من خرم الإبرة أن يدخل يأخذ معك الشاي، لكنه يجيب إجابة تغيظك:

شاي إيه بس يا أستاذ، ربنا يسترها معاك.اتوكّلْ إنت..

تتخلص من الفراغ والخنقة عائدًا إلى خنقتك الأولى.

لسعاد وأحمد اللذين ينتظرانك بالداخل على أمل شن حرب أسرية جديدة تبدأ ب:

"إنت إمتى هتفوق لنفسك؟" ولا تنتهي ككل الحروب التي تبدأ بسؤال متى أو "منذ متى".

والتي لا إجابة لها ككل الأسئلة الواضحة وضوح الشمس، إن كانت الشمس واضحة؟ أهذا كلام عقلاء هذا؟ طبعًا لأ.

خرم إبرة، كله خرم إبرة.

*** * ***

(عن مانويلا و اللغة العربية وعبد الناصر)

تقول مانويلا، صديقة سعاد الجزائرية، ثم من قال له إننا عرب، ومن أباح له أن يرسل لنا فقهاء العربية وشيوخها "من بلاده" ليعلمونا إياها. من طلب منه هذا التبرع؟ ولا تحدثيني عن الوحدة المجيدة أرجوكِ. فكل الآمال الكاذبة تتعرى الآن!

أتعرفين يا مانويلا، أنتِ محقة، عبد الناصر كان غبيًا. من قال له إنكم هناك عرب.. حقًا ليتك كنت من ذاك الجيل؛ لتنصحيه..فاته الكثير كونه لم يقابلك!

وتضحك سعاد في التليفون: تخيل يا فتحي، أول مرة أدافع عن عبد الناصر بالحماسة دي، تخيل حتى أنا نفسي استغربت! لكن مين عبد الناصر ده يا سوسو؟ آه تاني ريس. وعلى الخط يسألها فتحي: ومين مانويلا دي يا سعاد؟ فتسأل نادر: أنت رايح فين؟ ويجيبها والله أنا مش عارف جاي منين ولا رايح فين، ولا أنا فين أصلًا وتمسك سعاد بخيوط الكلام، خيوط العنكبوت، خيوط العرائس الماريونت، وتتداخل كلها معًا.. فتسقط على الكرسي، وتسمعها تقول: أكلمك بعدين يا فتحي.

قصدي يا نينو. قصدي يا مانويلا. وتسقط على الكرسي، بينما حبال الكلام تلتف حول رقبتها، وبهدوء تذوق الموت خنقًا.

(عن العلالي)

منذ أسبوع تقريبًا وهي تصرخ فيه كل مساء، لا ندري لم تنتظر المساء بالذات لتبدأ المعركة ولديها كل هذا النهار الواسع: ".. وخليك راجل".

يضايق سعاد صوتها جدًا ولا تفهم ما علاقة الطلاق بالرجولة.

يمر الكروان ككل ليلة. في مغاربَ كان يشق فيها السماء بأجنحته وصوته؛ ليجدد هواءها واتساعها، لكنه هذه الليلة يأتي صارخًا موزعًا ألمَه في قارورة. لا تشعر أنه قادر على توسيعها أو اختراقها. أنينه كشق في جدارٍ؛ يريد كشف تهديدٍ ما، فيختفي فيه...

وتبدأ سعاد في شحن أذنيها اللتين اعتادتا هذا الحفل كل ليلة من ذاك المبنى الذي يبرُك على نَفَسِها ويعلو بيتها بأحد عشر طابقًا، فيخفي الشمسَ والقمرَ.

من قال إن كل حجر يصيبه نصيبٌ من نور الشمس عليه أن يراجع ما قال!

تنطلق الأصواتُ من هناك إليها كسهم أطلقته قوس ماكرة. قوس تختار نافذة غرفتها، ويرشق طبلة أذنيها اللتين كبستهما بالقطن. لن أطلقك. وترد هاتطلقني والجزمة فوق راسك. تضحك سعاد، ثم تتوقف.

فصراخ متقطِّع يصل عنان السماء بأرضها، يدخل مضجعها سارقًا نومًا شحيحًا. صراخ رفيع كسِن خنجرٍ لايتوقف عن الغرز في الكبد. نغزٌ من الداخل يرد على ذلك الطعن من الخارج. تضغط مكان الألم، وتفرد يديها بجانبها، كحمام تعب من السفر وهلك وتساقط ريشه. تفرد سعاد جناحها الأيمن بجوارها، بينما الثاني تُخفي به وجهها، وتحس بذلك الملمس الذي لا شبيه له: ملمس الدم.كيف نصف ملمس الدم؟ كيف؟ تتكور وتضغط مكان الرحم بكفيها.

للدم رائحة وملمس، وهذه المرة تتعادل الرائحة والملمس.ملمس الدم يشبه رائحته تماما.ودرجة الحرارة هي هي. تتذكر وجه نادر وهو خارج من الرحم بدمه. تشمه وتريد لو لعقته ككلبة.

مرة واحدة، ذلك الصوت الرفيع الواصل عنان السماء بأرضها، يصرخ ويصرخ. سعاد ترفع يديها وتضعهما على أذنيها وتطلب منه أن يتوقف عن الصراخ، أن يتوقف، بالله عليك توقف يا ابني. لو كان في ضرعي لبن لجئتك أرضعتك،لكنه جفَّ من زمن. توقف نادر عن الرضاعة. هل تطلب من البواب أن يذهب إليهما في ارتفاعهما هذا، ويطلب منهما الطفل لتطعمه؟ ويتفرغا هما للقتال. ومن سيسمح؟ بل من سيسلم ابنه ضناه للأغراب؟ لن يسمحا، وسيبقى هو يصرخ. وستبقى سعاد تسدُّ أذنيها لتتقي صراخه المصوَّب تجاهها، وسيبقى الارتفاع عن الأرض كل هذه

الطوابق،هو ما يُطبِق على الجميع. كلّما ارتفعنا طابقًا عن الأرض حملناه معنا، فوق صدورنا.

وتبقى سعاد تبحث في جوف الرضيع الجائع الذي يجأر ولا مغيث!

أمازلتِ تبحثين عني في صراخ الأطفال؟

أستبقين بقية حياتك تبحثين عن ذنب ما؟

*** * ***

(عن اللب الأبيض)

تجلس سعاد في منتصف الأنتريه، أرضًا، وحدها، والوقت وقت فجرٍ.

أنزل من الدور العلوي لأرى. ومن ارتفاع صغير بقدر درجات السلم أراها بوضوح. أجلس على آخر درجة، بينما هي منكفئة تعمل بحماس. يضايقني البعد؛ فعندما يتعلق الأمر بالدقة لا بد من اقتراب ما.

لاأرى إلا النور الخافت، والفستان الأزرق الحريري، وشال صغير تلف به رقبتها.

أقترب منها أكثر، لكنها لا تشعر على عكس ما يحدث دومًا معي.

أجلس أمامها في كرسي مواجه.أنظر ولا أتكلم. ثم أتركها وأصعد.

: واحد اثنان..... أحد عشر.

تضع يدها في الطبق وتحفن حفنة، وتعيد العد، فأرى العدد كما كان. نفس العدد، الصدف تكرر نفسها. أحد عشر أيضًا.

وتكتب سعاد: "من تلك التي تعد؟ بل التي تتكلم؟ بل التي تظن أنها موجودة؟ من تلك المرأة؟ أحد عشر.. عظيم. أستخدم التكنيك الذي تعلمته من أبي في فض قشر اللب.أضع الواحدة تحت ضرسي، أضغط وأهرسها تمامَ الهرسِ وأبدأ من جديد. اللسان عضو مساعد، يسهل ويبلل الجفاف".

-ماذا تفعلين يا سعاد؟

-آكلهم، اطحنهم، أهرسهم هرسًا.

-تهرسين ماذا؟

-اللب.

-طبيعي.

-فعلًا، طبيعي جدًا.الهرس أمر طبيعي.

-ما هو؟

-أن يهْرس اللب، وأن يكون أحد عشر..

-لا أفهم؟

-ألا تذكر حدوتة يوسف والجب؟ حكيتها لك كثيرًا وأنت صغير؟

-نعم، إخوته والجب. كنت أخاف، عندما يلقون بيوسف في الجب،كنت أسمع صوت سقوطه، والهواء المكتوم، والظلمة، وصوت موسيقى ارتطامه بالقاع، ولا أستطيع النوم. لم أقل لك هذا أبدًا.، إنهم هم.

-أأكلتِ إخوة يوسف؟

-أحد عشر وزيرًا. أكلت الحكومة كلها، هرستها تحت ضروسي. كلها. كل الوزراء.

كلهم بروتين. اللب الأبيض كله بروتين، بروتين من نوع غريب، يقتل الديدان إن وُجدت، ويكافح وجودها قبل أن يوجَد. لا أحد يعلم. الناس مغيبة يا نادر. ثم إن اللب يعطي إحساسا بالدغدغة اللذيذة، فلحمه متماسك جدًا. أو يظن، "مدمْلِكْ"، تضغطه بأسنانك وأنت تتلذذ بهذه المراوغة يا لروعتها! ثم بعد أن تأكله تكتشف خدعة العلم؛ فلحمه الذي كان من المفترض أن يحارب الديدان التي تولدها الأمعاء من حركتها الدودية تلك، تجده وقد تحول إلى ديدان تسعى لتملأك بالكامل.

اللب الأبيض أكبر خداعٍ. اللب الأبيض ليس بروتينًا. إنه إنه..... إنه الجب نفسه.

وتتحول عينا سعاد إلى صفرة مرعبة،كلها تصير صفراء، ويختفي لون البؤبؤ، كتلة من الصفار تفيض وتسيل على الوجه، أتركها وأجري، آخذ السلالم في قفزتين،أدخل غرفتي وأغلق الباب بالمفتاح، وأنا أنتفض. أسمع الدَّق، أجيب بصوت متوسل، لا أريد أن أفتح. أوقفي صوت زحفك،أوقفيه. لا جب هنا يا سعاد، أنا نادر ابنك. سعاد توقفي توقفي..انزلي يا سعاد. أغلقي عينيك. امنعيهما من الخروج منها. وأبقى أنتفض وأبكي حتى الصباح، لمَ أكلتِ اللب الأبيض يا أمي؟

لقد أمرض روحك. وروحك أمرضتنا جميعًا.

*** * ***

(عن باء البلاء)

وأنت تعطيني الجناح، فلم لا أطير؟

ربما لأنك تقنع بالمنتصف

... وأنا لا أُنْتَصَفُ.

كيف يطير الطائر بجناح القناعة؟

هذا جناح لا يرفع الطائرَ، مهما كان وزنه.

*** * ***

(عن غين الغريزة)

جلست سعاد بينهما. سبعة كانوا أو تسعة لا أذكر إلا أنهم كانوا فرادى في عماهم.العمى لا يتكرر ولا يُجمع. كل عمىً فريدٌ وفرد ونادرٌ. كتبت سعاد.

أذكر هذا جيدًا الآن. ثمة ما يبقى في الذاكرة رافضًا المحو. ذاكرتي مثلي هوائية.

تجلس سعاد في المنتصف، ويتعلق بكل إصبع من إصبعها: فمٌ.

"أبرك بينها، سبعة عميان. كل منها يتعلق بإصبعي لا أعرف كم ذكرًا وكم أنثى، تجدونني مهمومة بالنوع في هذه اللحظة. فالذي ظننته ذكرًا هو من يرضع أطول.والأنثى هي التي كانت تتخلى أسرع! وترضع أقل. كان هذا مثيرًا للضحك جدًا.

إصبع لكل فم يَمتص. وفي أصابعي دفء حلوقها، وريقها، كانت تتعلق بدفني وتترك قدميها للعراء والفضاء مجازفًة بالسقوط في أية لحظة. أُخَيِّرُ كلَّ فم من هذه الأفواه بين قارورة اللبن، وطعم الإصبع الجلد القاحط، الفقير في جفافه، تقول الأفواه نحن أولى بجفافه. يأخذ كلُّ فمٍ إصبعًا، ويبدأ في الرضاعة. كأنه يتكوَّر فيه. أمسك بهم كأنما أمسك بخيوط الوهم. وكمن يحرك عرائس من دم ولحم. لا أرى مسافة. تزول المسافات، وأعود لنفسي، ولا يُعرف من يأخذ ومن يعطي؟ عندما تزول المسافات تزيل معها الكثير، مما يُحدث اللبس! تتحرك هذه الكتل اللحمية، أو هو عماها الذي يتحرك. إنها تستيقظ كل ساعتين فاتحة أفواهها للبن الدافي وقارورته، بينما تستيقظ في أي وقت أمر فيه بجوارها. وبحساب بسيط فثمة استنتاج أعجبني. لجوعِ هذه الكتل إيقاعان: الأول منظمٌ والثاني لاقانونَ له. الجوع الثاني قانونٌ بحد ذاته.

تقول سعاد لنادر: خذ كل جروٍ بعماه وأشبكه بضرع أمه، أهي تلد وأنا أربي؟

لكن الأم ترفض إرضاع هذه الذرية. وتضحك سعاد، يبدو أن الطبيعة تتحدى نفسها.

لم تعطيها كل هذه الجراء، ولا تعطيها بعددهم ضروعًا؟

تقوم سعادُ تاركة هذه الهموم تئن وتجأر بالشكوى. تكلم نفسها، ماذا لو أنني غير موجودة.. اتصرفوا بعيد عني!

لكنها لا تبرح ولا تغادر.تدور حول صور العمى الذي لاتفهمه، تشم أصابعها، وترى رائحة الجوع الذي تركته يرعى في الصالة. الأمومة لعنة، والأمهات لعنات، نادر على حق. الأمهات اختراعٌ لا معنى له. تُكلِّم سعادُ الأمَ المنهكةَ بالمخاض، الغارقةَ في دمها ما زالت: لكن لم تعطيكِ الطبيعة أعدادًا من العمى أكبر من ضروعك؟

هذا خطأ كوني؟ كيف لي بعلاج أخطاء كونية أنا؟ تنظر الكلبةَ المنهكةَ بعيون الامتنان والذلة وتغلقها على تعبها.. تنام معتمدة على سعاد.

نناقش الأمر فيما بعدُ يا سعاد. تقول بصوتها الواهن الذي يأسر سعاد.

وأية فائدة عزيزتي.. ارتاحي الآن، أنا اعتدت على معاشرة الأخطاء الكونية.. لا تقلقي، خبرتي تغطي هذا الثقب!

وتسيحُ سعاد في البيت، كأنها في مولد. تطهو الأكل، وتشتري لبنًا يناسب الأطفال. تحضر قوارير اللبن. وتضحك، كل طفلٍ رزقٌ جديدٌ. تمر بجوار الكلاب لتراها. هذه الأنَّات التي تطلبها تشرخ قلبها شرخًا تود لو أنها قطَّعت أصابعها إصبعًا إصبعا، وألقمتها هذه الأفواه العمياء النهمة التي تستيقظ دونما حساب الزمن. تستيقظ في أزمنتها هي. حاولتْ فتح أعين الكلاب ولم تتمكن، كانت كأنها قد خُيِّطتْ بعملية والتأمتْ. لا تعرف أن الكلاب بعد أن تفتح عيونها لن ترى أيضًا.

لا تعرف أنه ليست كل العيون المفتوحة ترى. وأن للعمى درجات ومستويات. وأن الكلابَ تحتاج زمنًا لتتعلم فنَّ الرؤية. تقول كل العيون التي تفتح ولا ترى مخيفة.موت فاتح عيونه. عيون زرقاء كالموت.

جلستْ في حديقة بيتها، تنظر للبيتَ من بعد، وتكلِّمه، بينما أحمد يرقبها ويضحك:

سعاد بتفكر ربنا يسترها معاها ومعانا.

هل تفكِّر في كيفية الاعتناء بالأطفال؟ أتفكر فيَّ؟ فيه؟ في الكلاب؟

وفي الليل عندما تصعد إلى غرفتها تمر عليَّ وتقول: تصبح على خير.

لا أرتاح لسعاد عندما تمر علي ليلًا وتقول تصبح على خير.لا أرتاح أبدًا.

فبعدها يحدث ما يخيفني دومًا. كأن تدخلُ غرفتها وأسمع هذا الصوت، صوت فحيح الحية، أُنصت أكثر للصوت وأتيقن منه. أقف وأغلق باب غرفتي علي بمفتاحي ثلاث تكّات، ومع هذا النوع من الأبواب التي لا تحجزُ الصوتَ، أنت في نوع سيئ من الأمان. هذا الباب الزائف، وهذا الصوت يمتطي الهواءَ، ويخترق الجدران: كل الجدران.. الغرف والآذان والأجساد.....

ما يستطيع اختراق الجدران والمسافات خطير. وما لا يسمع أخطر. وسعادُ صارت صوتًا من هذه النوعية. هي هنا. أقسم لكم أن القبر خاوٍ.

لذا تجدونني أخاف على الجراء من أن تنهش الحية لحمهم.

صوت فحيحها الجائع كافٍ لتبقى هي أمام باب غرفتي.

و أبقى أنا خلفه.

* * *

(عن هيبة الأسرار)

ما نحلم به مددًا طويلة، ولا نفعله يقتلنا في النهاية.

في هذا البيت ستقضي أمي عشرين عامًا من عمرها، آخر عشرين عامًا. هاهي تنظر إلينا أنا وأنتم، شاهدة على الخراب الذي يعمُّ الأرجاءَ.

اليوم أيقظني أحد القراء ثانية وهاجمني: أنتَ كاذبٌ، عمرك ليس ثلاثين عامًا. غريبٌ أمرُ القراء! كما أن سعادَ لم تلفت نظري لهذه الأمور. إرث أواجهه وحدي. طيب يا سيدي أقسم لك أن عمري ثلاثون عامًا أو أكثر. وأنني درست الهندسة كما أراد أبي لكن الجرافيتي يغويني بتشويه كل الجدران.

ضحك القارئ معي، وتبادلنا النكات، وقال لي إنه يهوى التنقيب عن الأسرار العائلية.

قلت له محبة مني سأخصك بواحدة. أخذته من يده إلى غرفة منزوية في البيت، لا أحد يدخلها إلا أبي، لكنني وسعاد نعرف الكثير الكثير عنها. فيها طاولة عليها كل ما لذ وطاب من الزجاجات التي تحوي الليالي المحبوسة. سألني هل تُحبس الليالي؟

قلت له نعم، كالأغاني والعطور والأجنحة و الفراشات المحنطة. والحيات والتنانين والعفاريت. نعم تُحبَس الليالي. كررتُها له.

وتحت الطاولة ملابس بلياتشو وبعض بدل الرقص، ورِقٌّ وطبلة وصاجات، وأحذية من كل بلد. بقايا أسفاره. أو ربما هي أسفاره ذاتها.

لكن ماسأسره لك وأخصك به وحدك دون بقية القراء هو هذه الأرجوحة. تعالَ، اقترب، لمَ أنت بعيدٌ هكذا؟ اقترب، ادنُ، انظر. هي كالغربال المطاطي.. اعتاد أبي أن يقفز عليه يقفز فيعلو ولا يخبط السقف.. ويكرر القفز.

ضحك القارئ وقال: ولكن هذا خطأ بنيوي.كيف نكتشف فجأة هكذا أن أباك بهذه الشخصية.. أنت لم تمهد لهذا من قبل؟

أضاحكه وأقول: ولكن كيف أمهِّد لشيء اكتشفه معك يا سيدي؟

فيقول: أنت الخالق. عليك أن تكون أكثر حرفية!

أعيد جملته عليه.. ونتضاحك ويسند بعضنا بعضًا كي لا نهوي على قفانا.

ثم نصعد معًا فوق الغربال ونبدأ في القفز.

أقول له: أبي يفعل هذا فقط عندما يسكر. بالسكر وحده يتمكن من اللعب والقفز!

وهذا رأي سعاد/ كراميلا، وأنا أتفق معها.

وبينما كان يفعل هو هذا، يتأرجح فرحًا، كنت أنام على وسادته، أشم رائحته فيها. وعندما يسافر كنت أشمها وهي تتطاير وتخفت يومًا بعد يوم، فأكره وجهي!

(عن الانتحار)

تمر سعاد بي، تتوقف في الصالة، كنت أجهز شيئًا أرشه، أظنه الباندا الحزينة؛ لألصقه بجدار ما من تلك الجدران العارية في الخارج والتي اكتفتْ من صور الشهداء. تتوقف وتقول لي: اليوم هو اليوم قبل الأخير من هذه السنة، أتعرف يا نادر، أنا مرعوبة من أنني قد أقتل نفسي، هذا اليوم!

ولكن يا كارامیلا، المنتحرون لا يهددون!

"كارامیلا؟ " وتتسع عيناها وتبتسم ابتسام من يخفي أمرًا دقيقًا..

"من أين عرفت هذا الاسم؟".

تتسع عيناها، فأقول لتهدئتها، كان اسم إحدي الفتيات الطاليانيات اللواتي عرفتهن وأنا أرش جرافيتي.. لاتهتمي! كنت أقول لكِ إن المنتحرين لا.....

وأنا كنت أقول لك إنني خائفة من أن أقتل نفسي، من تحدث عن الانتحار؟

ومن جديد، أرى هذه الصُفرة تملأ بياض عينيها فأفر بالدب الحزين إلى الخارج!

قراءنا الأعزاء، اسمحوا لي أن أعلمكم بأنني أول من عرف بموت سعاد: كان سبقًا صحفيًا! سبقٌ لا أعرف حتى الآن كيف أستفيد منه!

(عن الجلد القديم ونزعه)

لا بد من الذهاب الآن؟

إلى أين؟

الكوافير. الجلد القديم يضايقني، يتراكم حول الأظافر ويتخطاها إلى الأصابع.يضايقني؛ لاأعرف كيف أتنفس.

طيب.

الجلد القديم عايز مهارة أنا مش شاطرة فيها. ممكن أجرح نفسي.

يا سوسو،بطلّي مبالغة، فيه "عِدة" كاملة في الصيدليات.

عدة إيه؟ مش هاعرف أستخدمها.المهم، ابقى قول لأبوك هاتأخر شوية.

هيفهم، ما تقلقيش.

تفتكر!

يلا ادّيني حضن.

سعاد الكاذبة، ليلة خروجها الأخير لنزع الجلد القديم..

* * *

(عن اليُتْم)

رحلت سعاد تاركة شطرنجًا يتيمًا بملكٍ ثابت في موته. نافذة لاتستحق هذا اللقب. وكتبتْ: في الإفلات انفلات.

وكتبتْ: سكينة وراحة وبراح ما بعد التشتت.

بصراحة لا أخفي عليكم أنها لم تُفلِتْ ولم تَنْفَلِتْ.

ولا مزاج لي الآن لأبرر لكم لمَ أقول هذا.

مللت اعتمادكم عليَّ.

تصرفوا وحدكم. أنتم أيضا يتامى.

*** * ***

(عن هذا الكيس)

ولما لم تعدْ ألوانُ الحياة تتحرك، إلا على الجدران؛ أخذتُ عدة سمكات من محل حيوانات وطيور. ووضعتها في كيس به ماء وأكسجين، ووضعته أمامي.

قلتُ للبيت المعتم كجثة منتفخة إن ثمة شيئًا ملونًا يتحرك. وكان مثلي، يدرك هذا لأول مرة؛ فضحكنا.

ثم قال هذه عتمة ملونة!

وقفت، ومن ارتفاعي، تقزَّم الكيس في مائه وحياته وسمكاته الملونة.

وكتم أنفاسه، كمن فهم التهديد!

اتعرفين يا أمي أن تلك السمكات لن يغفرن لك أبدًا، وأنا أيضًا!

*** * ***

(عن مدد الشوف وثاء الثرثرة)

أجمل الرسائل التي كتبها أحمد لي كانت من المطارات. كأنما كان يخاف الأنفاق. والخوف دافع نبيل للكتابة. أنفاق تبدأ بالممر الذي يأخذك للنفق التالي: جسد الطائرة، فالنفق الأكبر: الرحلة. ما دام يكره السفر ويخشاه، لم يسافر؟ لم لا يرفضه؟

يكتب أحمد: "أنا ضائع يا سعاد؛ كل حياتي أقضيها في الطائرات، والأزمنة الطائرة. لا أعرف لي بيتًا تمامًا كنادر.أنتِ لم تستطيعي توفير بيت لنا".

أسافر؛ لأنني لم أستطع تغيير هذا فقلت لنفسي: لأغيَّر المكان.

لا، بل أنا أكذب..

إنني أسافر لأنني غالبًا،أسمع من يناديني ويدعوني للركض. فأستنجد به.بل إنني أسافر لأنه لا سبب يمنعني، ولا سبب يدعوني للبقاء.

طائرات، ليس أزيزها هو ما يحيط بطبلة أذني، بل أصوات طلقات نارية طائشة، تعرف هدفها:أذنايَ! وأجساد ملقاة على أرضية المطارات،بنفس مستوى التعب، نفس مستوى الأحذية. تنكشف في صمت السيراميك والرخام، وبرودته، لأيادٍ أخرى ترصد اللحظة وتلتقطها. تحشوها في كاميرات وموبايلات خلسةً وعنوةً.. سرقة حلال.

ويأتي الفجر ولن أنام، لم أعد أنام يا سعاد. فصالات المطارات باردةٌ جدًا، وعيون المسافرين في المطارات عيون أسماك قرش، أنا لم أعد أنام، ولم أعد أحلم.

المطارات وأجسام الطائرات وعيون القروش.. وذلك التهديد، إنك دومًا مهدد بالبكاء. هو يفاجئك كحمى غير مرغوب فيها أثناء رحلة. ما أسوأ أن تهدَّد وأنت تبكي، أن تبكي تحت التهديد، تحت قصف عيونهم وكاميراتهم. أتعرفين أن البعض صوَّرني سرًا وأنا أبكي. أنا نادرًا ماأبكي. صحيح. لكن أحيانًا يحدث لي هذا. ربما سيضع الصورة في مجلة ما، أو موقع ما أو على صفحته في الفيس بوك. كيف سأعرف؟ هو ليس صديقي.

ما أسوأ أن تبكي في مطار.

ما أسوأ أن تأخذ علبة من البلاستيك، يسمونها وجبة، وتتناولها بجوار جارٍ لك لساعات، ينظر إليك وأنت تأكل.. ويأخذ هذه الصفة رغمًا عنك، ويعرف عنك كل شيء، بدءًا من عدد مرات دخولك الحمام، وشكل جسدك إن فاجأتك نوبة قيء، أو انخفاض في ضغط مخك. أو توتر من هبوط وإقلاع. أو قرف من تصفيق هستيري بعد هبوط جيد لم يتحول إلى سقوط؛ لأن الطيَّار، كابتن

الفريق لايرغب، لا يريد أن يختتم سيرته المهنية بصندوق أسود. كرامته المهنية لا تسمح!

جار يعرف عنك ما ليس من حقه، من تقززك من الطعام،وانتهاءً بك وأنت تلقيه في جوفك كقمامة في طريقها لإعادة التصنيع، بعد هذا سيسمون هذا المنتج: دمًا!

تخيلي يا سعاد. ابن هذه الأطعمة القذرة الملوثة بالبلاستيك، والجيران اللزجين ذوي العيون الميتة، هذا الدمً! هذا التكرار يفسد دمك؛ لذا أنا سيئ، كما تصفينني.

وبعد أسبوع، أعود من مكان ما، أود لو حكيت لكِ، لكنك مشغولة بطلابك، وسفراتك، وشيوخك، وكتبك! أنت دومًا مشغولة!

لذا؛ سأكتفي بأننا قد ربحنا كذا، وأن حسابنا في البنك قد ارتفع إلى كذا، وسنناقش هذا معًا، بمنتهى الجدية، كأي مديرين قلقين على الشركة والشراكة!

لا تغضبي إن سألتك: لماذا تضعينني في بؤرة اهتمامك الآن؟ ألأنني سأنسحب؟

أذهب لمكتبي، أسمع فاجنر، وأفكر في الصفقات، الحب والنساء، في حياة لا معنى لها. وفي هلولك من الخارج وقد تخلصتِ من جلد أظافرك القديم. ستعودين من عند الكوافير خفيفة، مرحة، لسبب لا تعرفينه حتى أنتِ! وهكذا ضاع عقلك، ومرض جسدك. وهكذا أمرضْتنا معكِ!

في هذا البيت الذي تصرين على نصْبه لنا، سأعقد الصفقات، وأضخ لكم المال، كل صور المال القذر الذي كان عليَّ أن أعطيه لكم، لأنني لا أجلب سوى المال. أفكر وأنا أستمع إلى موسيقاي مربوطًا بمقعد يحمل رقمًا في درجة رجالِ الأعمال، أفكر في تلك الماكينات المرمية على النواصي المحشوة بالمال دومًا والتي لا تأخذ راحةً، ولا يُسمح لها أن تكون فارغة. أن تتعطل أمر غير مفهوم، لا يجب أن يدوم ويوضع في بند الأداء السيئ للبنك. لا يجب أن نعكِّرَ مزاج الزبائن بأي عطل، الزبون دومًا على حق. وأنا كَربِ أُسرةٍ مثالي لا أتعطل كثيًرا، وإن حدث فلن يستمر لأكثر من وقت امتعاضكم واستيائكم فأقوم وأنهض وأواصل الركض. هو المال لكم، لا أجلب غيره! بحسب اكتشافات نادر: إنتَ شوية فلوس باردة ووسخة!

لأ، أنا بقرة يا حبيبي، وماتنكرش إن اللبن مهم لبناء العضم. اللي إنت واقف عليه دلوقتي وبتبجّح فيَّ.

وأتعاقد على صفقات من السيارات السريعة، والتي ستقتلك إحداها فيما بعد!

و الآن في فجر يوم لا أجدك فيه، في هذا البيت، هنا على ذلك الكرسي: كيتي/ ريتا،كلبة نادر،القرين الأنثى لي. والتي تهتم بي في غيابكما: أنتِ ونادر. لكنها، هذه السافلة ستتركني عندما أبدأ في محادثتها. هذا جديدٌ علينا.

ليس على أن أتوتر أو أرتبك. سأستمر بشكل طبيعي في هذا العالم المجنون!

سأشرب الويسكي، وأفكر في كيفية الاستمرار، وأضحك!

أضحك في وجه جحيمي: حبي لكم! ذلك الذي يدفعني دفعًا لعقابكم..لكنني وبرغم ميلي لعقابكم، مازلت أحبكم: أنتِ، نادر، وكيتي/ ريتا. أسوأ مافي العقاب أنه يجعلك تفكر فيه! يأخذ مساحة من رأسك.

إنني أحبكم، مؤكد. بغض النظر عن أسلوبي في حبكم! قد يكون الهروب منكم، وقد يكون البقاء في المطارات وأجساد الطائرات وأجساد النساء. لكن يبقى العقاب،في رأيي، أفضل طرق المحبة.

طريقة أنت تستحقينها بعودتك من الخارج ترتعشين، غير قادرة على التنفس. بإغلاقك النوافذ، وإسدالك الستائر، ودخولك غرفتك وقفل بابك.

"أنتِ عزلة تمشي على قدمين" حاملةً تحذيرًا مضحكًا: الجو ملوث بالخارج. انتبهوا.

هذه الجملة: الخارجَ ملوَّثٌ تضحكني. أنتِ لاترين إلا الزائف، فلا تحوّلي هشاشتك إلى جرح. لا تحوليها إلى فلسفة ورهبنة.. تلك الهشاشة التي بفضلها أود أن أقبّلك!

والتي تبقيني مقيدًا بكِ، ولاأعرف لمَ كلما هممتُ بكراهيتك، اشتهيتُ تقبيلك! كشقيقة!

تصافحينني وتخبرينني أنك غاضبة مني، ثمّ تُقبلينني تلك القبلة الأمومية التي تحمل طعم الحليب لشبعان مكتفٍ، قائلةً: يمكنك أن تعتمد دومًا على وجودي.

فكيف استطعتِ أن تديري الزمن لحسابك دومًا يا سعاد؟

ثم تجلسين في زاوية. رأسك بين كتفيك،والسقف على أنفاسِ كلينا، تقلّبين عالمك الذي تبدّل فجأة. ونجلس متواجهين.. كجملتين أو فوَّهتين:

- لمَ أُثرثر؟ لأن الصمت يُرعبني.

- وأنتِ لم تصمتين؟ لأن الكلام يُرهبني.

هكذا نحيا. بينما أنا أتنقل من امرأة إلى أخرى. تحت انتظارِك اللعين أكثر من تلك الرحلات. "رحلات الخيانة" أو:

"صفقات مع من؟ شركات أم أجساد؟".

تهكمك الرقيق.

إنه انتظار مهدِّد يفسد جمال الهروب منك. وكلما ازداد انتظارُك، اشتدّ قهرُ العودة. مؤكد هذه كانت خطتك اللعينة! لكنه برغم مكره انتظار جميل عجيب! لمَ؟ لأنه يحمل عنايةً ما! أوهام نحيا بها. أحيانًا تحتاج أن ترى الأمور من منظور خاطئ لتفهمها بشكلها الصحيح. أعرف هذا القانون جيدًا. فأنتِ تطبيقه الحي! في هذه الأوقات، تهدم مشاعرُنا أعشاشَها بنفس الإخلاص والمشقة اللتين جمعتهما بهما، وتغادر.

في يوم يدخل نادر ويقول: هذا هو الفارق بينكما. كل منا كان يمسك سكينه وبرتقالة ويقشر.

"وضع السكين هو الفارق بينكما".

سكينكَ إلى الخارج، وسكينكِ إلى الداخل، والقشور ستسقط في الحالين.ثم يصعد إلى غرفته. فتقولين بحزن: نادر كبِر وعجِّز.

هذا الطفل الذي حاربتي من أجل الاحتفاظ به. كنت لاأريد منحه هذا العالم. لكنك أتيت به. أنظري حاله! أولم أكن محقًا.. أولم أكن؟ أنت أجبرتني، فجاء ككل ثمرات الإجبار.. بلا معنى!

أنظري كيف صرتُ أستمتع بالحديث معك، بل كيف صرت قادرًا أصلًا عليه؟ بل كيف صرت قادرًا على الإجابة على أسئلتك التي لم تكوني تودين أن تفرطي فيها.

تبقَّى سؤالٌ أخيرٌ: لم أهرب من النساء؟

بل أهرب إليهن. أحبهن وأعطيهن، كما يمنحنني؛ فبهن أنا قادر على أن أعطي. أضع يدي في شعر إحداهن فأشعر أنها رأس نادر، هذا وضع أفضّله كثيرًا، كثيرات كن يستغربن! يدي ترتاح، أكثر في دفء جلود رؤوسهن. أحيانًا أنام هكذا..

ذاك الحنان الذي لم أعطه له، وصار يرفضه الآن، لا يحمله عني الآن، فائض الحنان هذا، ما زال يعذبني. هل للحنان مدة صلاحية؟

إنني أعاني من فائض حنان! نوع غريب من الأمراض! اضحكي، كيف ستفهمين أنتِ؟

ولست ببخيل مع أي منهن، لكنني ولا أدري لهذا سببًا لا أحتمل اكتمال جمالهن.البقاء مع أي منهن يعني إهانة لها. أريد لها أن تعتزل وهي في كامل زهوها، كنجمات السينما.. لا تصدقيني أعرف! لايهم فأنا نفسي لا أصدقني.

أنا لا أحتمل الجمال مدة طويلة. السفر هو الحالة الوحيدة التي أحتملها. لأنه جمال قبيح. مشدودٌ بمغناطيسك ودبابيسك التي تغرسينها فيَّ كل صباح: تلك النظرات، وهذا الانتظار، والأسوأ: تلك الملكية. لستُ ملكًا لأحد يا سعاد!

موتي.. ابتعدي عني.. اعيدي لي عقد ملكيتي لنفسي. أريد أن أغرسه فوق باب مفتوح كما يفعل البدو.

يا سعاد: لم قتلتِ نفسك؟ لقد صرتُ أكثر ضياعًا؟ وهذا العقد في يدي، لم أكن أريده بهذه الطريقة! ماالعمل وكل هذا العالم يتكدّس أمامي، ويختنق في هذا الكوب المضحك الملآن ضجًرا.

لا أعرف لم يغريني الظلام الآن يا سعاد؟ هل لأنني اعتدت ظلام السفر؟

تعرفين هذا النوع من السفر الذي لا عودة منه! هذا التيه الذي يبعثرك فتظنه يؤرجحك. هذا التيه يا سعاد! الأرجوحة.. هل رأيتني أتأرجح من قبل.. بالتأكيد لا.

لم لا تفهمين حيرتي وحالتي وآلامي؟ كيف تكتبين ولا تفهمين النفْسَ؟

هذا قصور يا سعاد، والله العظيم قصور.

لا أدري لم ارتفع صوتي، لكنني أتذكر جملتك: "لأنك لست على حق". أريد أن أصفعكِ الآن. يقولون إنها الصفعة علاج بالصدمة. ضد تلك العِشْرة، ضد ترهل الجسد؛ المجهز لتحمُّل روح واحدة، وأرغمناه على اثنتين فصار لا هو ينمو ولا نحن.

لذلك اسمحي لي أن أقبل رأسك مرتين: مرة على شجاعتك وأخرى لانسحابك.

أكملي قهوتك في هدوء. وأنا؟ أنا لن أبتعد كثيرًا!

فكل ما يفقَد يعود إليكَ في صورة أخرى. جملتك اللعينة.

*** * ***

(عن اللغات)

لغةٌ تفسرُ أخرى. كتبت سعاد. "زبان حال" بلغة الفُرس:"لغة حال".....

وبنفس القياس، زبان عقرب هي لغته. وليس سوى رفاعي من يأمن شرها. كما أن عليه أيضًا أن يتلفَّت.. هذا التلفُّت هو غالبًا ثمن الأمان. وتحب سعاد فكرة التهديد.

لا بد من تهديد. من شيء من شخص من زمان من مكان.. وإن لم تجده تهدد هي نفسها. فإن تعذَّر، تقود سيارةً باتجاه واحد. هذا الإحساس ما جعلها تحمل معها دومًا دبوسَ مشبكٍ في حقيبتها. بانتظار سقوط ملابسها. دومًا تحمل هذه اليد وتنتظرها. تلك اليد الخفية التي ستشد ملابسها تسقطها وتعريها.

ولم تسأل نفسها ما الذي يفعله دبوس بحجم عقلة إصبع لمثل هذا التهديد؟

سعاد وإن سألت نفسها فمن قبيل الإحساس بالدفء. تحب أن تتقافز الأسئلة حولها كأرانب صغيرة. تشعرها بأمومة ما. كل سؤال أرنب. ولا يعنيها أن تناديها.

*** * ***

(عن النقلة الكبرى)

أنا ونادر نقرأ الرواية المخطوطة. لم نقرر شيئًا بشأن نشرها بعد. أقرأ الأصلَ وهو يقرأ نسخة أخرى. كان قد طلب مني أن آتي إلى غرفته هو؛ لنناقش مستقبلها.

وهو مرعبٌ أن يكون لك حق تقرير مصير جزء من أمرأة ما زالت لها قدرة غريبة على قذف السم من هذا البعد بكل هذه المهارة. نوعٌ من السم إن قُذفت به ففي خلال ستين ثانية، لا بد من بتر العضو الذي حُقن بالسم، أو تموت قتيلًا. سم دفين لا يمهل. طريشة طرشاء، تؤدي ماجاءت من أجله، وترحل. دفِينة مدفونةً في الترابِ تقفز وتبُخُّك وإن لم تبترْ العضوَ تُدفن معها.

أعتقد أن على أحمد أن يتفرغ، لتقرير مصير هذا الكتاب.

وأعلم أن موتي كان مأزقًا، كما كنتما مأزق حياتي. لكنني أعلمُ أيضًا أنكما ستجلسان هنا تتبادلان النظراتِ وأنتما تقرران مصيركما. تفضَّلا. هذا كان أحد أهدافي للكتابة، والرحيل. وهما كلمتان مترادفتان. فسلامًا عليكما الآن، فأنا أريد أن أخلد للنوم

فقد أجهدتماني حقًا.

سنةً كاملةً أعيش حيواتٍ وأكتبها وألعب معها، واللعب بالحيوات قاتل سام، كتبت لكما أنني أُحس أنني سامة ومسمومة!

الحياة لم تُخلق لنلعب بها ومعها، فهي التي تلعب، وإن أخذتَ دورها أنت قتيل.

أتعرفان، أنا لن أختار موتي، السيارة التي سأركبها ستذهب بي حيث لا نعلم كلانا.. أيعلم الفرسُ شيئا عن الطريق؟ ولا الفارس أيضًا! سنكتشف معًا. أريد سفرًا غير ممل.

أما المادة التي صنعتكما منها فقد تيبَّست بكما. أتراكما من جبس؟

بل أنتما من جبس، وأنا أحبكما هكذا.

النهاية

"أنا لم أنظُمْ لكَ المثنوي لتحفظه أو تعيده، بل ابتغاءَ

أن تضعه تحت قدميك؛ لتستطيعَ الطيرانَ".

شيخي جلال الدين الرومي

هوامش

هامش أول

"الحياة حلوة بس نفهمها." مين الأهبل ده...؟

ده مش أهبل، ده واحد عايز يفهم؟

وفهم؟

لأ طبعًا. هو ده سؤال أصلًا!

دا إيه التناقض ده؟

فينه التناقض في إنه واحد عايز يفهم حاجة ما تتفهمش أصلًا فمافهمش...!

هامش ثانٍ

شايف البحر شو كبير؟

آه والله شايف ما شاء الله.

هامش ثالث

والدم ده من نصيب مين؟

ماعرفناش؛ قطعوا "البث" المباشر.

هامش رابع

المهنة: كاتب. الوظيفة: القَتْل أحيانًا.

هامش خامس

"دُفن يوسف عليه السلام في أحد جانبي النيل؛ فأخصب الجانب الذي كان فيه وأجدب الجانب الآخر. فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها صندوقًا من حديد، وجعلوا فيه سلسلة، وأقاموا عمودًا على شاطئ النيل، وجعلوا في أصله سكة من حديد، وجعلوا السلسلة في السكة، وألقوا الصندوق في وسط النيل؛ فأخصب الجانبان جميعًا.

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة هجرية، ظهر قدَّام المقياس بمصر، وسط النيل الحائطُ الذي كان في جوفه يوسف وتابوته، ولم ينكشف قطُّ منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذٍ عند نقصان الماء في قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه، وظهر للناس وأكثر الناس ما علموا ما هو".

اختلفنا أنا وأبي في الاحتفاظ بهذا الجزء، أنا رفضت وهو صمَّم وقال إن سعاد لن تغفر لي لو لم أدرج هذا الكلام في الرواية.

أريد أن أُسجِّل تحفظي ورفضي التام لهذا الجزء؛ حيث لا أفهم لم حُشرا في شؤوننا الداخلية، وما شأنهما بنا.. السيوطي أو المقريزي.

ولما قرأت هذه الفقرة لأحد أصدقائي قام وهو يقول: أنت خربان يا نادر؟

ماطبعًا يا خول إنت.. عايزني أدفع ألف جنيه وبعدين ماخربش..! وضحكنا متناسين يوسف وتابوته ومعجزاته والروضة وفرعون وموسى والمقياس والسيوطي.

وخصوبة يوسف، أقصد الجانبين، الضفة اليمين والضفة الشمال. صح كده؟

هامش سادس

لا أخفي عليكم أنني ما زلت تحت تهديد هذا التليفون من مستشفى المجرة. أتتذكرون؟

هامش سابع

أأَرضى بِالإقامةِ في فَلاةٍ
وَأَربَعة العَناصِر في جواري..!

إلى كَم آخذُ الحَيّاتِ صحبي
إلى كَم أَجعلُ التنّينَ جاري؟

إذا لاقيت ذاكَ الضّوءَ أَفنى
فَلا أَدري يَميني مِن يَساري!

هذه الصفحة، ما الذي تريده سعاد بها؟ أن أبحث بنفسي عن كاتبها؟ لن أفعل.

لا من أجل حية، ولا من أجل تنين. أما الفلاة والعناصر الأربعة والصحاب والجيران والفناء، والضوء، فهي أمور لن أتعايش معها في أمان، لمَ البحث إذن؟

هامش ثامن

"ما رأيك أن تفعل معي كما يفعل الطير مع الشِباَك: أن يبتعدَ بعضُنا عن بعضٍ والسلام".

لا أتذكر أين وضعت كاراميلا هذه الجملة بالداخل، لكنها لما أعجبتني أردت أن أنزعها من السياق وأضعها هنا: ما رأيكم: أَخَيْرًا فعلتُ...؟

ملاحظات فرعية

1. أسنان البق، كانت آخر رسالة من كاراميلا لهدهد، ثم آثرتُ إلغاء الحساب، ثم عرفت أن الحسابات لا تلغى، تُوقَف فقط، لا يوجد أمر محو/ Delete، وهذا ما يشترك فيه الفيسبوك مع وزارة الداخلية، فلا أمر للمحو في كمبيوتر الداخلية، ما دخل لا يخرج، لذا صارت داخلية! استوقفني التشابه وأخذتني الصدفة.

2. النساء حول قهوة الأربعين لأمي، كن أصدقاء سرير أبي. أغلبهن. وما زلن يزرنه.

3. نوجه كل الشكر والامتنان لموقع الفيسبوك الذي يسمح للناس بالتواصل وقتل الوقت، والتشارك الروحي.

4. معرض فن الشارع الخاص بي سيكون بمناسبة سنوية كاراميلا، تأبينًا يليق بها. قد لا يتمكن العديد من فناني الجرافيتي/ أصدقائي من حضوره، فمنهم من استشهد، ومن اعتقل، ومن هاجر، ومن أدمن.. ومن غيَّر الموضوع: دعونا نشرب في صحة تغيير الموضوعات.

5. كل جمعة ألتقي أبي، ونجلس نتحدث. كانت قد صارت سبب لقائنا، وكنت قد أكدت لأبي أنها تحضر، وأنني على استعداد لإثبات ذلك، فكان يضحك ويقول: اللي خلِّف مامتش.

فأقول: تقصد "اللي كلِّف مامتش". إنت تقصد كده، صح؟

فيقول: لأ. ومش عارف بتتكلم عن إيه؟

فأقول له: دا اترسم على ناصية محمد محمود، وكل مايشيلوه نرسمه تاني.. كنا سبعة.

فيقول: إنت لسه مش عايز تفوق!

فأقول: لسه أيوه، صح كده..! مش عايز أفوووووووووق.. تمام!

فيقول: طيب مش ناوي تيجي تشتغل معايا في العربيات؟

فأقول: ناوي بس لو زوَّدتوا سرعتها شوية، السرعة مش عاجباني، بصراحة.

والموتور.. كمان لازم يتعاد فيه نظر، قول للألمان يعملوا شوية مجهود عشان التسويق يتحسن.

فيقول: طيب هاطلع أنام.

فأقول: أنا لأ.

والنهاية لم تأتِ بعد....

سهام بدوي
فبراير 2013 / فبراير 2014
القاهرة

الكتب خان للنشر والتوزيع
13 شارع 254 – دجلة – المعادي – القاهرة.
تليفون : 20225196569+ - 20225170678+
بريد اليكتروني:info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

"وتتقاهى الأسماء، ولا نعرف القاتل من القتيل!! لا نعرف، لأن الأسماء أوهام متشابهة وغير كافية. القتل والقتلة أسماء ملتبسة. والبعض تتشابه عليه الأسماء، ولا يجد فارقًا مع الوقت وقسوة الطقس، وارتفاع سعر السجائر، والسكر والمكرونة.

هذه لعبة مسلية: اللعب بالأسماء. بعض الأديان يُحرِّم هذه اللعبة، وبعضها يُحرِّم اللعب أصلاً؛ لأنه يُسفر عن جثث.

تبدأ بأسماء تخرج من فتحات الفم، وتتجمّد في العيون، وعلى جدران المدينة، وتنتهي بارتفاع سعر المواد الغذائية والغاز والدخان، والخروج الآمن، وتنتهي بالدم الساخن وهو يسيح، مما يسبب بطئًا في حركة المرور والمارة، خوف الانزلاق".

رواية تدور أحداثها في أيام قليلة تضرب بجذورها في ماض غائر، يُسفر عن علاقات معقّدة بين شخصيات مهدمة. تتلاعب بها مسافات غير واضحة لتداخل وتشابك معطيات الحاضر بالماضي. تداخل يتيح لنا رؤية تضاريس مشكوك فيها وملتبسة لحيوات كل شخصية.

الناشر

سهام بدوي: حصلت على شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب جامعة القاهرة عام 1986. صدر لها : "هلاوس" رواية، "عودة إلى الوجه" رواية، "مشتهيات" رواية ، ومجموعة قصصية بعنوان : " عزف منفرد ".

ISBN 978-977-6306-49-3

"وتتاهى الأسماء ولا نعرف القاتل من القتيل!! لا نعرف، لأن الأسماء أوهام متشابهة وغير كافية. القتلى والقتلة أسماء ملتبسة. والبعض تتشابه عليه الأسماء، ولا يجد فارقًا مع الوقت وقسوة الطقس، وارتفاع سعر السجائر، والسكر والمكرونة.

هذه لعبة مسلية: اللعب بالأسماء. بعض الأديان يُحرِّم هذه اللعبة، وبعضها يُحرِّم اللعب أصلاً؛ لأنه يُسفر عن جثث.

تبدأ بأسماء تخرج من فتحات الفم، وتتجمّد في العيون، وعلى جدران المدينة، وتنتهي بارتفاع سعر المواد الغذائية والغاز والدخان، والخروج الآمن، وتنتهي بالدم الساخن وهو يسيح؛ مما يسبب بُطئًا في حركة المرور والمارة؛ خوف الانزلاق".

رواية تدور أحداثها في أيام قليلة تضرب بجذورها في ماض غائر، يُسفر عن علاقات معقّدة بين شخصيات مهدمة. تتلاعب بها مسافات غير واضحة لتداخل وتشابك معطيات الحاضر بالماضي. تداخل يتيح لنا رؤية تضاريس مشكوك فيها وملتبسة لحيوات كل شخصية.

الناشر

سهام بدوي: حصلت على شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب جامعة القاهرة عام 1986. صدر لها : "هلاوس" رواية، "عودة إلى الوجه" رواية، "مشتهيات" رواية ، ومجموعة قصصية بعنوان : " عزف منفرد ".

ISBN 978-977-6306-49-3

Table of Contents

(عن النديم والندامة)
(عن أسنان السأم)
(عن الجمال)
(عن الهتك)
(عن الداخل)
(عن الداخل من الخارج)
(عن الجدران والطيران فيها)
(عن البرشمة والتهييس)
(عن الكفر)
(عن البقاء في الصمت)
(عن الهنا والهناك)
(عن الضمان والضمانات)
(عن الفراغ والفقد)
(عن البقاء في الظلام)
(عن البكاء)
(عن فن التجاهل)
(عن الرمان)
(عن السهرة مع سعاد)
(عني وعنها وعن الحوار)
(عن الطواحين)
(عن اللعنة)
(عن الزلزالِ)
(عن الوسيط)
(عن القلق)
(عن ال ولاّ)
(عن النصيحة)
(عن الزيف)
(عن المنتصف)
(عن التفاصيل)
(عن التنانين)
(عن العنعنات)
(عن الهلوسة والتحكم)
(عن الليمون)
(عن المحو والممحاة)

(عن اللذة والضحك)
(عن الأخْذ)
(عن حديث خرافةَ)
(عن الاحتماء)
(عن الكينونة)
(عن الجمع والفرق)
(عن ضربة الجزاء)
(عن الفوَّهات)
(عن الثقوب)
(عن الغياب)
(عن البرودة)
(عن المتى)
(عن أمراض المناعة)
(عن ضفائر الزمن)
(عن شبكة العنكبوت)
(عن الأجساد)
(عن الموتى)
(عن كاراميلا وعزيز)
(عن معنى ما)
(عن فارق التوقيتات)
(عن الشطرنج)
(عن الألغام)
(عن الروائح البعيدة)
(عن النقشبندي)
(عن الرؤى والمجاز)
(عن النعيق)
(عن أحمد وسعاد)
(عن أسنان البق)
(عن الروح والريحان وجنة النعيم)
(عن العطر)
(عن الحقيقة)
(عن خرافةَ)
(عن اختبار التوازن)
(عن المغناطيس)
(عن النوافذ)
(عن الغصن الذي انحنى ومال)
(عن الثغرة)

(عن امبارح)
(عن الأضرحة)
(عن كف العفريت)
(عن باء البكاء)
(عن امتداد النداء)
(عن حاجات غريبة)
(عن رُخَص الرجوع إلى الوراء)
(عن مانويلا و اللغة العربية وعبد الناصر)
(عن العلالي)
(عن اللب الأبيض)
(عن باء البلاء)
(عن غين الغريزة)
(عن هيبة الأسرار)
(عن الانتحار)
(عن الجلد القديم ونزعه)
(عن اليُتْم)
(عن هذا الكيس)
(عن مدد الشوف وثاء الثرثرة)
(عن اللغات)
(عن النقلة الكبرى)